
عادل عصمت
حالات ريم
رواية



الأعمال الكامله
t.me/kotbhm

حالات ريم
رواية
الطبعة الأولى: ٢٠١٧
رقم الإيداع: ١٥٩٢٩ / ٢٠١٧
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٠٣-٠٤٣-٣
الغلاف: حاتم سليمان
جميع الحقوق محفوظة
الكتب خان للنشر والتوزيع ®
١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادي - القاهرة.
تليفون: ‎+٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩ - ‎+٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨
بريد إلكتروني: info@kotobkhan.com
موقع إلكتروني: www.kotobkhan.com

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب، بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة، أو استخدام أي وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Arabic Language Translation copyright © 2017 Al Kotob Khan for Publishing & Distribution The Moral Rights of the author have been asserted. All rights reserved.



حالات ريم

عادل عصمت



تجلس "ريم" في صالة واسعة، نوافذها من الزجاج، على مقعد مبطن بقطيفة حمراء، وتلبس تاجا من الذهب، يبرز في مقدمته فص من الفيروز. نظرتها ساهمة وعيناها ثابتتان. تراقب شيئا يظهر لها وحدها. مستقرة، في حالة من السكينة، لم تكن عليها في يوم من الأيام.

فتح "مهاب" عينيه. أدرك أنها كانت تُتوج أو تُجهز للزواج، هناك في مكان بعيد، أو زمان قديم. انتبه لخلاء البيت منها ومن "مني" ابنته الصغيرة. رغب أن يعود إلى النوم مرة أخرى. تقلب في الفراش وفكر في الوقت وفي مناوبته المسائية في الصيدلية. عادت صورة "ريم".

يحلم بزواج زوجته!! قال لنفسه بسخرية. يرى وجهها الساكن والتاج والنظرة المستقرة، وشعرها ينسدل على كتفيها. نقوش الفستان وحدات زخرفية لأغصان النباتات. تغطي الرقبة العالية للفستان زهور لوتس صغيرة بألوان من الأحمر والأسود.

يغلق باب الشقة وهو يفكر أن "ريم" في وضع تتويج. يخرج من باب العمارة. يفاجئه ضوء النهار الباهت. يتعرف بصعوبة على تفاصيل حياته من بين أجواء الحلم. يحاول أن يتذكر أين ركن سيارته ليلة أمس. يراها هناك أمام محل الخردوات المغلق منذ زمن، ساكنة بلونها الأبيض، ومساحات الزجاج مفرودة. يحاول أن يسحب ذهنه بعيدا إلى التفكير في متطلبات يومه: زيارة أمه، ثم شراء احتياجاتها، والتوجه إلى الصيدلية. هناك وقت طويل في مناوبته المسائية ليفكر في الحلم.

يدير موتور السيارة، ويفتح الراديو. ينتظر لحظات. تعود دهشته من أنه ينفصل أحيانا عما حوله. صور الحلم تتراءى ملغزة وحية، كأنه قد حضر هذا العرس في يوم من الأيام، على الأقل يعرف القاعة الواسعة، التي كانت ريم تتوج فيها. عينا ريم السوداوان الحيويتان فيهما حيرة وشهوة يعرفهما تماما. مقبلة على حياة جديدة. حاول أن ينحي ذهنه بعيدا عن الألم الذي تتركه مثل تلك الأفكار.

قاد السيارة في شارع "علي مبارك". مر أمام البنك الذي احتل مكان الشونة القديمة. انحرف يمينا في شارع الفاتح، وقاد متمهلا. المساء في شهور نهاية العام، له ملمح ساكن وهش لا يحبه. لا يفضل تلك الشهور؛ يشعر بأنها

شهور وهن. تعود صورة "ريم" تنظر إلى نقطة خارج المكان. نقطة ترتاح إليها وتمنحها مسحة من الشرود الذي يحبه. فكر في القاعة، وطرازها المعماري. تبدو قاعة معبد قديم، أو قصر قديم. قاد السيارة بسرعة وتخطى ناصية مصلحة المساحة، ثم شارع النحاس. وصل إلى بيت والدته، في الشارع الضيق خلف الكنيسة.

ما زالت أمه تجلس تحت شباك المنور في الصالة والتليفزيون يذيع فيلما عربيا. أخذ منها قائمة المشتريات. أنجز المشاوير شاردا مشغولا بصورة ريم في حفل التتويج. يتساءل والسيجارة معلقة بين شفتيه: من أين جاءت الصور الصافية في الحلم؟

عاد إلى بيت والدته. ترك الأكياس في المطبخ. قالت إن "خالد" اتصل من السعودية. ثم راحت تتابع الفيلم العربي صامتة.

قبل أن يغادر البيت قالت بتودد:

"لا بد أن تصالح نهى أختك، وتتصل بأخيك."

قال بحدة:

"هو يتصل، هو في السعودية، يتصل."

لاحت له بعيلة، فترة توتر العلاقة بينه وبين أخيه. وقتها كان يبيع بقايا الميراث: بيت قديم في شارع الفاتح. شعر باللوم يبطن كلام أخيه؛ كأنه يتهمه بأنه أضاع الأسرة، حتى قال له صراحة، قبل أن يسافر إلى السعودية، إنه فاشل، وفشله أضاع الأسرة، الآن لم يعد يشعر بالدهشة، بل بالغضب وبأن تلك الفترة الداكنة كان بها أمر غامض لا يستطيع فهمه.

أثناء تصفية بقايا الميراث، ارتبكت أفكاره، وموقفه من أبيه كان يتحول من النقيض إلى النقيض؛ من الحب إلى الكراهية. تحمل لوم الأسرة لأنه أقنع نفسه بأنه فعل ما يجب عليه فعله. كانت فترة لا تحتمل. تلوح في خياله يلفها لون المساء الداكن، وزوجة عمه تطارده، والقضايا تنهال عليه من كل جانب، وقتها شعر بأن زوجة عمه تريد أن تطير رقبته أكثر مما تريد أن تسترد نصيب زوجها من ثروة أخيه.

* * *

ركن السيارة أمام الصيدلية. أصبحت السادسة والربع. جاء متأخرا كالعادة. سوف يحكي لفهمي الحلم، عله يتخلص من ضغط الصور وملاحقتها. جلس على مقعد بجانب الحاجز يراقب حركة "فهمي" الوقورة: يغلق

جهاز الكمبيوتر ويجهز أشياءه للانصراف، ويتمم على الإيراد.

قال بصوت خافت:

"تصدق؟ حلمت بها؟"

لم يرد فهمي.

"حلم غريب جدا."

ظل فهمي على صمته يتابع إنهاء مناوبته، ثم قال قبل أن يغادر الصيدلية:

"لا بد أن تُرجع زوجتك."

***

بعد منتصف الليل أغلق الصيدلية.

الشارع ساكن.

سيارات نائمة أمام البيوت.

ضوء زاه عند ناصية الشارع، أمام محل الموبايل الجديد، برتقالي، يمنح الشارع صبغة خيالية.

أخرج الموبايل وطلب "ريم".

رنين

.....

سوف يسمع صوتها الآن.

سيتوقف الرنين، ويظهر صوتها ببحّته المحببة من قلب الفضاء المظلم للخط.

الصمت يسبق الكلام.

سيأتي صوتها بعد انتهاء تلك الرنة.

الصمت القصير بين رنات التليفون مساحات واسعة متوترة.

رنين

...

***

يمتد الشارع حتى جسر السكة الحديد. في نهايته عمارات جديدة لم تكتمل البناء. أعمدة إنارة ضوؤها محترق. ركن السيارة أمام محل بقالة. اطمأن على إغلاق الأبواب. أمامه ساعة على مناوبته اليوم، ولو تأخر يمكن لفهمي أن ينتظره. صعد سلالم واسعة مضاءة بضوء أصفر باهت. انفتحت حماته الباب؛ في الخمسين، جسد بدين، وعيون واسعة سوداء. نفس عيني "ريم". شهوة ريم بلورها في تلك العيون الواسعة السوداء.

قالت بترحيب مصطنع:

"أهلا يا جوز بنتي".

قادته إلى الداخل، وأضاءت النور. انكشفت الصالة الطويلة التي تحتل نهايتها ترابيزة سفرة كبيرة تصل إلى نافذة مغلقة، تنسدل هناك ستائر ذات خطوط لامعة.

سأل عن "ريم".

قالت وهي تلبس الإسدال:

"عند رباب أختها".

ابتسم:

"لا داعي للإسدال يا حماتي. أنت لا تجوزين لي."

قالت: "أنت شيطان."

حاول أن يمازح حماته، لكن القلب انقبض. يسري في الجو توجس لا يستطيع تخمينه. انتبه. نفرت حواسه الداخلية، وشغفه بالعلامات. الآن عليه أن يستغل مواهبه في التقاط ذبذبة الإشارات الخفية. سأل حماته، عن "منى" وهل تذهب إلى الحضانة.

قالت:

"لا تخف، "منى" بخير."

لحظات صمت مكنته من التقاط التوتر والود الزائف. لم يكن في نفس البيت الذي يعرفه منذ تزوج "ريم". يشعر

بشيء من الغرابة. المكان به شيء غير طبيعي. تأكد حدسه عندما قالت حماته:

"طلباتك يا مهاب؟"

قال بدهشة:

"زوجتي."

رفعت عينيها إليه. صمتت لحظات قبل أن تجيب بجدية:

"أنت طلقتها."

"نعم؟"

"........."

"طلقتها؟"

"إن كنت لا تعتبر ما حدث طلاقا، أنت حر."

ضحك مهاب:

"هي طلقت نفسها."

قالت بتمهل:

"ولعلمك هذه هي الطلقة الثالثة. كان لا بد أن تأخذ بالك."

نظر مباشرة إلى حماته:

"قلت لها إن تركت البيت تبقي طالق، فتركت البيت، أبقى طلقتها؟"

"اسأل الشيوخ وستعرف."

قال بغضب:

"أسأل نفسي."

ساد الصمت لحظات.

قالت حماته بجدية:

"الطلاق وقع."

فتح عينيه على اتساعهما كما يفعل في المواقف التي لا يقدر على تصديقها، ولأن حماته تركت كلامها يستقر فهما واضحا في ذهنه، فلم يجد غير جملة واحدة أخذ يكررها بصوت خافت:

"هي رأيها إني طلقتها؟"

استعد للانصراف:

"خلاص إذا كانت ترى أنني طلقتها، تطلب الطلاق في المحكمة."

ندم لأنه قال ذلك.

قال ناقما وهو يهبط السلالم:

"طول عمرك أهوج."

أدار السيارة في طريقه إلى الصيدلية. صوت حماته به نبرة حاول أن ينصت إليها عله يكتشف ما عجز عن فهمه أثناء جلوسه. أراد أن يعرف النوايا. ما الأمر؟ ماذا تريد ريم؟ تريد أن تتزوج مرة أخرى وهي زوجتي؟ طلقة ثالثة يعني لا تجوز لي إلا بعد زواج آخر. يا خبر؟ هذه الأسرة غريبة فعلا.

***

ريم ترتدي بنطلون جينز وجاكيت بيج من نفس القماش، تخرج من البوابة الكبيرة لكلية التجارة، تنظر إلى نهاية الشارع، ضوء الشمس يغمر الدنيا، ناعما، ذهبيا، في مساء شتوي، ويغمر جسدها. سارت تجاهه. بسمتها لا تقاوم.

لا يصدق أن كل هذا الجمال له.

***

اتصل فهمي منير:

"أين أنت يا دكتور؟"

قال معتذرا:

"ربع ساعة وأكون عندك."

ركن السيارة بجوار بنك مصر.

يفكر في ذلك الشاب الذي كان يركن ظهره إلى سيارة بيجو زرقاء، منذ أكثر من عشرة أعوام. يرتدي بلوفر برقبة ونظارة شمس سوداء. يتطلع إلى باب كلية التجارة ويسوي خصلات الشعر التي تطير عن جبهته. أين ذهب؟ هل يمكن أن يقابله؟ بدا له أن ذلك الشاب ما زال هناك، ينتظر أمام كلية التجارة.

***

تقف "ريم" على الرصيف. صديقاتها يرفعن أيديهن. خطت تجاهه، البسمة شفافة، الأسنان مرصوصة لامعة، تزيدها فلجة السنتين الأماميتين روعة. تركته واقفا وفتحت الباب وجلست في المقعد الأمامي.

أمسك يدها وقال:

"أريد أن آكلك."

قالت:

"جهزت نفسي."

***

أدار السيارة.

متى حدث ذلك بالضبط؟ هل كانت الدنيا مضيئة على هذا النحو؟ ربما لم يحدث هذا، بالضبط، كما يراه الآن. ذات يوم حكى هذا الموقف لريم. فقالت: "لا أتذكره." نظرت إليه تحاول تذكر تلك الأيام البعيدة وقالت: "أتذكر عندما كنت تنتظرني عند باب الكلية لكني لا أتذكر هذا اليوم بالتحديد."

بسبب هذا الرد، بدأ يفكر أن هذا الموقف من إنتاج خياله، انتقاء، تجميع من الذاكرة وليس حدثا. كل ذلك لم يحدث في يوم واحد، بل مشاهد من عدة مواقف جمعتها الذاكرة لتشكل صورة خاصة، منحها التأمل الطويل زمنا داخليا، وبدت كأنها حدث تم على هذا النحو الذي يراه الآن.

قاد السيارة متوترا في زحمة شارع البحر في ذلك الوقت من بداية المساء. يفكر في تلك الصورة الناصعة لبداية تعلقه بريم متأكدا أن هذا الموقف قد حدث فعلا، ولم تخلقه الذاكرة.

قال بصوت مرتفع وهو يتخطى إشارة شارع النحاس: "كيف أثق في ذاكرة ريم، وهي أصلا بلا ذاكرة."

***

تتذكر رغم انطباعات، مشاهد، ملامح، ولاتتذكر أحداثا متسلسلة. أوحت لمن عرفها عن قرب، بأن ذاكرتها ضعيفة، وأنها تشك دائما في ما حدث. الماضي لا يخصها. المواقف التي تستعيدها الآن بحدة ووضوح، مواقف تحدث الآن، وليس منذ زمن، سواء كانت حكاية أم حلما. تحكي عن السنوات العشر الأولى من حياتها في الزقازيق، كأنها أحداث لم تحدث "بحق وحقيق"، بل صور وبقايا أحلام وحكايات، وتضحك، من ذلك الخلط الذي يحدث في ذهنها، ويجعلها تشعر بأن ما تعيشه يشبه غزل البنات يذوب في الفم قبل أن تبلعه.

أدرك "مهاب" من بداية معرفته بها أن ذاكرتها لها طابع خاص وأحب ذلك واعتبره لمحة من جاذبيتها. في الصباح تفتح عينيها كأن تفاصيل اليوم السابق قد محيت، وتستغرق لحظات حتى تتعرف على نفسها ومكانها.

أخبرته أختها الكبرى "رنا":

"أختي ستظل طفلة، كنا نأتي بها من فوق شجرة النبق. وفي المغرب لا بد أن نبحث عنها قبل أن تظلم الدنيا حتى لا يدخل الليل وتكون ساهية تلعب مع العيال."

فسرت له "رنا" انطباعه وأضاءت بعض الغموض

عندما قالت:

"ريم تتوه عن نفسها."

***

في الزقازيق كانوا يقيمون في بيت من طابقين له حوش واسع بلا أسوار. مساحة خالية تلعب فيها مع إخوتها، حيث تقف سيارة مرسيدس موديل الستينيات. الشرفة واسعة بها كنب مفروش بأكلمة بدوية. تقود إلى الباب الزجاجي الذي يؤدي إلى الداخل، وعند ناصية الشارع محل بقالة، واجهته مدهونة بلون عسلي وفوق بابه لافتة مكتوب عليها بخط الرقعة وبلون أزرق داكن: "بقالة السعادة". كلمة "السعادة" أكبر من كلمة "البقالة". أخبرته "ريم" بأن أول كلمة قرأتها في حياتها هي كلمة "السعادة".

أمام البيت يقف حنطور يجره حصان بني اللون. سائق الحنطور هو "عزوز" أحد أبطال طفولتها. رجل عجوز، بشارب كثيف اصفرت أطراف شعيراته من التدخين. يبتسم عندما يراها ويرفعها لتجلس بجواره وتمسك اللجام. يقول إنها "أميرة". هذا هو لقبها الأول، الذي ظل يتجول في أخيلتها وهي تلقي نظرة على الأشكال الغامضة في قاع فنجان القهوة، تبحث عن ذلك الحس الملوكي الذي كانت

تقود به الحنطور وعم "عزوز" يناديها بالأميرة.

كل يوم تقرأ كلمة "السعادة" المكتوبة فوق باب محل البقالة وتتخيلها حريرا أبيض يلمع في الشمس. كل يوم تفكر في الكلمة على هذا النحو وتشعر بالبهجة والسكينة والسر. ذات مساء وهي تميل تجاه "مهاب" الذي كان يشير إلى شيء داخل فنجان القهوة تذكرت أباها وقالت:

"لا أعرف سر السحر الذي كان يحيط به."

كانت تفوح منه رائحة، تشبه البخور. رائحة خاصة جدا. تشمها أحيانا في الهواء بلا مناسبة، عندئذ تستدير حولها كأن أباها قد تجسد في الفضاء. تحيط به تلك الرائحة خصوصا في الأيام التي يعود فيها من رحلاته في الصحراء.

قالت في يوم آخر مستدعية أباها إثر حديث عن الروائح:

"ربما ما جعل رائحته خالدة، هو موته المفاجئ."

جاء من إحدى رحلاته في الصحراء محمر الوجه. تعشى ودخل غرفته.

صحت في منتصف الليل على صرخات أمها وهرولة كل من في البيت. كان عمرها عشر سنوات، لم تجر إلى

الصالة مثل أختيها. ظلت راقدة في الفراش تحدق في السقف ولم تصدق مطلقا حكاية موته.

* * *

هناك مناطق شاسعة، بلاد، أشخاص، مشاعر، انطباعات، عرفها "مهاب" بالصدفة. غلالة شفافة من الغربة حاول كثيرا أن يتخطاها، وكان أقرب ما يكون إلى ذلك أثناء قراءة فناجين القهوة، عندما تحكي ريم -ناسية نفسها- عن أشياء حدثت لها في تلك السنوات الأولى. كان أبوها "تاجرا كبيرا". لا تستطيع أن تفسر معنى كلمة "كبير" ولا تذكر غير تلك المهابة التي كان الناس يتعاملون بها مع "الحاج مصباح". يعرفه الكثيرون، حتى ناظر المدرسة الابتدائية، عندما عرف اسمها قال لمدرس يقف بجواره: "بنت الحاج مصباح خليفة". بسبب تلك المهابة والمعرفة المنتشرة أضافت إلى التاجر كلمة "كبير". لم تعرف طبيعة التجارة التي يمارسها أبوها. كل ما تعرفه أنهم يملكون مواشي ولهم أطيان في قرية قريبة من الزقازيق.

في بداية الثمانينيات عادوا من الزقازيق ليقيموا في طنطا بعد موت أبيها. تركت أمها كل شيء هناك وجاءت لتعيش بجانب إخوتها. ميراث البنات مكنها من شراء شقة

بالقرب من ترعة القاصد، وبعد بيع ذهبها شاركت أخاها وابن عمها في تجارة قطع غيار السيارات. غير أنها تذهب كل عام إلى الزقازيق لتأخذ نصيبها السنوي من التجارة.

ما كان يحير "مهاب" في الأيام الأولى لدخوله بيت "ريم"، هو إحساسه بأنهم لا ينتمون إلى المكان. إحساس غامض بأنهم غرباء، أو عابرون، خاصة عندما عرف أن خالتها متزوجة من خليجي وتقيم في الكويت منذ مدة طويلة، وتشاركهم في التجارة. أحيانا كان يمازح "ريم" واصفا أسرتها بأنها "نبات شيطاني" فتدافع بانفعال قائلة إنهم من أصل البلد، وجدها لأمها كان مفتشا في الري من سمنود عاش حياته في شارع القاضي، ويمكن أن تريه بيت العائلة.

هناك جانب غامض في تلك العائلة لم يتبينه قط، وإن سأل فلا يحصل على إجابات شافية. لماذا تسافر أمها كل عام إلى الزقازيق؟ ولماذا تبقى هناك أسبوعا كاملا؟ العلاقة الغريبة بين خالها وخالتها التي تقيم في الكويت. كثير من الغموض يحيط بأسرة "ريم"، والأهم أن هذا الغموض يسكن تصرفاتها.

***

"ريم" تحب الكذب، واختلاق الأحداث. لا تحب

الحياة العادية. تحب أن تلونها بالأخيلة. يندهش "مهاب" عندما تحكي، في اللقاءات العائلية، موقفا حضره معها؛ تحرّفه وتضيف إليه تفاصيل لم تحدث، وتمنحه صبغة أخرى. يضحك من قلبه ويحبها أكثر. تنظر إليه وتضحك، مبتهجة بحبه لها. بمرور الوقت أدرك أنها تكذب لمتعة الكذب. أحيانا تتذكر أمورا على أنها وقائع ثم يثبت أنها جزء من أحلامها. تؤسس لأصل العلاقات في أسرتها بطريقة أسطورية. تضحك بسهولة جدا، وتبكي بنفس السهولة. تحب المرح والأعياد والأعراس والمناسبات العائلية، لكن حبها الأساسي هو الرقص. "مهاب" يؤكد لنفسه أن في تكوين "ريم" نوعا من الاهتزاز وعدم الثبات، ولهذا سقط حملها الأول والثاني.

***

ذات مساء ذهب ليعود بأمه من عرس إحدى القريبات. واحدة من المرات النادرة التي خرجت فيها أمه من البيت لتقوم بواجب التهنئة. يومها رأى "ريم". كانت ترتدي فستانا أصفر حتى الركبة. في بداية التسعينيات كان طراز الملابس المفتوحة من الخلف تكشف السيقان ما زال موجودا. شعرها كثيف السواد، وعيونها لامعة عميقة النظرة. كانت تشب لترى شيئا من نافذة صالة الشقة،

و"مهاب" يقف في طرقة السلم يدخن. عندما استدارت، رأت كيف ينظر إلى ساقيها بتركيز، فابتسمت. راح يراقبها طول الوقت، يشعر بالإثارة ويحس بالبهجة أخرجه من أفكاره الكئيبة حول موت أبيه ونزاع زوجة عمه على الميراث.

تفتحت حواسه وشعر بحماسة عندما رقصت "ريم". أثارت صخبا، وكشفت عن حيوية جسدها وتناسق تفاصيله. الخصر النحيل مركز الحركة. مركز إطلاق الذبذبات في الهواء. شعرها يدور حولها مثل الأجنحة، وجسدها يبتكر لكل نغمة شكلا. حركة مرتبطة بأخرى، جملة واحدة تتموج بلا توقف، تترك وهجا في الهواء. حركات جسدها حيوية حتى خيل إليه أن أثرها سوف يبقى في المكان بعد انتهاء الرقص. تغمض عينيها وتدور دورة كاملة. يغطي شعرها الكثيف وجهها. تزيحه بأطراف أصابعها وتوجه نظرتها إليه.

أدرك أنها ترقص له، وبعث هذا في كيانه موجة من الصحو. حركت "ريم" انبهارا كان يظن أنه محصن ضده، بعلاقاته المتنوعة ابتداء من بنات كلية الصيدلة والنادي حتى بنات العائلة والجيران. في تلك الليلة تعرض "مهاب" لنوع آخر من الجمال؛ صاخب ومشع يأتي من عمق لا يعرفه.

في اليوم التالي كان يقف أمام كلية التجارة يركن ظهره على السيارة البيجو الزرقاء، وفي كافتيريا على الطريق السريع قرأ لها الفنجان لأول مرة، وقال إنها تبدو مثل طائر يحلق في السماء.

ضحكت قائلة:

"غلط، أحس أنني بقرة."

ضحك مهاب. لم يصدمه الوصف، فقد شعر بأن به لمسة من الحقيقة، وأنه أراد أن يضفي عليها وصفا كاذبا. لم تجاره في ضحكه وأخبرته بجدية أنها تحلم كثيرا بأنها بقرة لامعة مدهونة بماء الذهب.

أخبر "فهمي" بعد عدة لقاءات مع "ريم" أنه سيتزوجها. كان قد افتتح أول صيدلية بما تبقى من ميراث والده، شركة مع زميله ورفيق الطفولة. يومها سأل فهمي:

" وخطيبتك؟"

في ذلك الوقت كان قد تخلى عن فكرة العزوبية الدائمة، وأراد أن يداوي فشله في صيانة ميراث والده "بخطوبة عقلية"، كما كان يسميها، من إحدى قريباته؛ والدها ثري يملك عدة مخازن للأدوية ومحلا لتوريد الأجهزة الطبية.

استمرت حيرته عدة أيام وفي النهاية قال لفهمي:

"سوف أفسخ الخطوبة."

يومها توقف "فهمي" عن العمل، ورمى القلم على المكتب الصغير وقال:

"وما ذنب البنت؟"

قال مهاب:

"أبوها غني وألف من يتمناها."

"البنت ارتبطت بك."

قال مهاب:

"لن أتمكن من الاستمرار في تلك الخطوبة."

قال فهمي:

"يا عم فكر في مستقبلك. طول عمرك بتعرف بنتين أو ثلاثة في نفس الوقت."

"هذه المرة، لن أقدر."

غضب فهمي:

"لكنك تخسر كثيرا."

"أعرف."

ثم ضحك:

"لا تفكر في غير العمل يا فهمي، هذه الخطوبة مفيدة لنا، صح؟"

أجاب فهمي باستقامة:

"صح."

"ما باليد حيلة لن أتمكن."

ثم قال وهو يتابع دخان سيجارته:

" كلما زرت خطيبتي لا أستطيع الاقتراب منها، لن أتمكن من النوم معها."

أخذ نفسا عميقا من السيجارة:

"الأمر مختلف هذه المرة."

لم يقتنع فهمي بهذا التحول المفاجئ، وظل يسأل عن السر، عن طبيعة الاختلاف بين ريم وبين من عرفهن من البنات، لكن مهاب ظل عاجزا عن إيضاح الأمر.

***

الأيام التي سبقت خطبته لريم، أيام صخب وإثارة. "فهمي" يشعر بالخسارة، و"مهاب" يحاول أن يشرح الأمر. أحيانا يلوح له أن السر يكمن في ذلك الطيف من البهجة الذي يحيط "ريم" أثناء الرقص، والضحك والكلام ببراءة مثل الأطفال. أحيانا يفكر أنه طعم القبلة، تلك الليونة والاستغراق الذي لم يجده في كل من عرفهن من البنات. هنا أمر مختلف، لا يستطيع أن يجسده في كلمات ومن ناحية

أخرى، بدا أنه أمر ساذج لا يصح أن يقوله: "جسمها يفهم، يشعر، يتفاعل" وفي النهاية قال لفهمي ببساطة:

"بمجرد أن أتركها أشعر أنني أريد أن أراها. فيها شيء غامض كأنه سحر."

ضحك فهمي وقال:

"تبرر أهواءك، ستظل هكذا دائما، تتنقل من امرأة إلى أخرى."

قال مترددا:

"هذه المرة تبدو الأخيرة."

ثم واصل التفكير بصوت مرتفع:

"فيها شيء جذاب لدرجة لا تصدق."

قال فهمي مبتسما:

"استحوذت عليك."

أخيرا اعترف:

"ليس هناك شيء ملموس غير أن برجينا متوافقان في الأبراج الأصينية."

نظر فهمي مندهشا:

"هل تصدق هذه الأمور؟"

***

أمسية من أمسيات مايو. نزل من السيارة برفقة خاله وزوج خالته. يشعر بالتوتر والبهجة، على مدخل العمارة، تتدلى شرائط من مصابيح ملونة. ما زالت هناك حقول تفوح منها رائحة نباتات بالقرب من ترعة القاصد. أمه وأخته وبنات العائلة وصلن قبله. من خلال وجه "نهى" أخته أدرك مدى الغربة التي تعانيها في هذا الجو الذي كان مقسما ـمن وجهة نظرهاـ بين الحس الشعبي والتجاري الفج. لم تستطع أخته أن تجسد قلقها يوم الخطوبة، لكن أدرك الأمر بعد ذلك.

***

حسن ريم غجري. من أين جاءت الفكرة؟

يمازح "رنا" الأخت الكبيرة ويسألها إن كانت جدتها غجرية.

تضحك قائلة:

"لم يكن لريم إلا واحد مثلك."

ثم تقول وهي تنظر إليه نظرة ذات مغزى:

" الأنثى هي الأنثى. الرجل يخلقها من خياله."

يقول بجدية:

"غير صحيح، أعرف الفرق بين النساء."

تضحك:

"ما جَمع إلا ما وفّق."

تلمس يده بمودة:

"أنت شيطان، لا يمكن الاطمئنان إليك."

كانت أيام بهجة. "ريم" لا تتركه لحظة واحدة. تتصل به طول الوقت، وتطلبه في منتصف الليل. تقول إنها لا تستطيع النوم دون أن تراه. يحيطها توهج وثرية في مشاعرها، مندفعة لا تعمل حسابا لشيء. تقول ما في قلبها بتلقائية، فتنته وجعلت الإثارة مثل الضوء يسري في الحياة. جسدت ذات يوم بهجتها:

"اعمل حسابك، سأنجب سبع صبيان وسبع بنات."

احتضنها وحملها بين ذراعيه وتوجه إلى نافذة الصالة وقال:

"أرميك من الشباك؟"

* * *

لم تستمر الخطبة الأولى غير شهرين.

ريم تريد أن ترقص في كل مكان.

ذات يوم دعته إلى خطوبة إحدى زميلاتها. يومها رقصت بفتنة. تزدهر فيها حياة أخرى أثناء الرقص. جسدها يمثل تموج الماء وليونته كأن الحيوية الكامنة في قلب الحياة تشير إلى نفسها في رقص ريم. تصبح جسدا ممزوجا بالموسيقى، يهل جوهرها لامعا، مضيئا، كأنها نجم حط من السماء.

يقف مهاب في ركن مستمتعا برقصها مندهشا أن كل هذا الجمال له. سمع شابا يقول لصاحبه: "شايف المزة؟ عجل." اقترب منها وطلب أن تتوقف عن الرقص. ابتسمت وراحت ترقص. تركها في العرس، ونزل. قاد سيارته إلى بيت أمها وأخبرها واقفا أمام الباب:

"بنتك لا تنفعني."

بعد عدة أيام اتصلت "ريم" وأخبرته بأن الدورة الشهرية تأخرت.

عاد للقائها، وجاءت الدورة بعد أسبوع. رجع إلى بيتها هذه المرة دون اصطحاب أسرته، وعندما تم الزفاف لم يكن مطلوبا أن يكون رسميا، فالأسرة يكفيها الرسميات مرة واحدة. اكتفوا بحفل صغير في شقتهم، وعاد بها في الليل في سيارة "فورد" جديدة لأحد أقارب "فهمي".

***

في الليل أغلق الصيدلية.
رن الصاج في الشارع رنينا مجوفا.
الثانية صباحا.
الشارع ساكن.
السيارات نائمة أمام البيوت.
السماء بعيدة، تبرق فيها نجوم بلا نهاية.
أخرج الموبايل وطلب ريم.
رنين

***

"حماتي تقول إنها طلقة ثالثة."

"............"

"تخيل؟ طلقة ثالثة؟"

رفع "فهمي" نظره من فوق الفواتير التي يراجعها ونظر إلى صاحبه.

"أعرف رأيك."

"..................."

"إما أن أطلقها أو أطلبها في بيت الطاعة، ولا أجلس هنا أندب حظي."

ألقى السيجارة من يده خارج باب الصيدلية وقال:

"لكنك لا تعرف...."

قال فهمي بحدة:

"لا أريد أن أعرف. الدنيا ملخبطة، لا تزيدها لخبطة."

تماسك ثم قال بلهجة الكاهن:

"عش ببساطة، يكفينا تعقيد الحياة."

أكمل وهو يتوجه إلى أحد رفوف الصيدلية:

"كنت ستموت لو لم تعش التجربة."

"يا فهمي ليست تجربة، لي بنت منها."

"أعرف."

"لكنك لا تفهم."

"أفهم بطريقتي."

نظر فهمي بجدية وأكمل:

"صدّق صاحبك. فكر ببساطة وتصرف ببساطة."

***

ترك "مهاب" الصيدلية دون أن يكمل مناوبته، مطمئنا أن صديقه سوف يتحمل ظروفه. قاد السيارة. يفكر أن "فهمي" لم يكتو بالنار. لم يعرف الحب. يعيش طول عمره هكذا مركزا في عمله. يعود إليه الفضل في إنشاء الصيدليات

الثلاث. يعرف طريقه ولا يورط نفسه مثلما ورطت نفسي. طول عمري أحب أن أتورط. ربما أرى نفسي أكبر من حجمي، لأن بعض البنات تعلقن بي. خيل إليّ أنني يمكن أن أعبر البحر دون أن أبتل.

يدور بالسيارة في الشوارع. ينسحب ضوء الشمس من فوق شجر البونسيانا في شارع البحر. المساء يخيم على الميدان الواسع المستدير في قلب المدينة بساعته الخربة. يفكر في أن أمرين لا يمكن تحملها: "المسخرة، والألم."

المسخرة تم ترتيبها بشكل ما.

***

كل خميس تزور أختها "رباب". كل خميس بلا توقف، وتطلب منه أن يمر عليها بعد انتهاء عمله بالصيدلية. تعلقها ببيت أختها فاق حدود احتماله. طلبت أن تزور أختها فرفض. نظرت إليه بتحد وقالت:

"لن تمنعني من زيارة أختي."

فتحول رفضه إلى إصرار. أصرت هي الأخرى أن تنزل. خاف أن يمد يده ويجرها من شعرها. خاف من نفسه عندما تفلت أعصابه حتى لا يكسر لها ذراعها مرة أخرى.

في تلك الليلة كان قد وصل به التعب والغضب من تبدل أحوالها مداه، فقال: "إن خرجت من البيت تبقي طالق." عندما رجع من الصيدلية كان البيت خاليا منها ومن "مني".

يدرك الآن أنها تعرفه وأنها ورطته في الغضب. مهدت له السبيل ليطلقها دون أن تطلب.

* * *

قاد السيارة بسرعة عالية، في الطريق المفتوح باتجاه الإسكندرية. في منتصف المسافة استدار وعاد إلى المدينة. اتصل بفهمي وقال إنه لن يتمكن من العمل الليلة. دار بالسيارة في الشوارع. لا بد أن يرى "شريف الشايب"؛ "جورو" المتع وحارس الحياة السرية. أيام الشقاوة، كانت شقته هي الملاذ. يعمل مدرس رياضيات، ويستخدم شقة الدروس لأغراض المتعة.

قال لنفسه مستثيرا حماسة قديمة: "جاء وقت الهلس."

لحظة العتمة هي لحظة "شريف الشايب" الذي يرى الحياة متعة خالصة. رفيق الدرب الذي ابتعد عنه أثناء الجامعة، وبعد عمله مدرسا وارتباطه بالفيتامينات وأدوية

القوة الجنسية، راح يزور الصيدلية بانتظام أول كل شهر.

أوقف السيارة أمام البيت، وصعد السلم يشعر بنفثة جديدة من الحيوية. فتح "شريف" الباب وذقنه مغطاة برغاوي كريم الحلاقة، وقال متهللا:

"أهلا أهلا يا دكتور، لم تزرنا من زمان."

تركه واقفا عند الباب، وجرى باتجاه الحمام.

باب غرفة الدروس مفتوح. تتناثر فيها كراسي من البلاستيك. رائحة طباشير وبقايا عرق الصبية والبنات. عبر الصالة ودخل غرفة صغيرة فيها مكتب عليه جهاز كمبيوتر وسرير في الركن وعدة مقاعد خشبية قديمة. توقف أمام جهاز الكمبيوتر.

تتصدر نصف الشاشة امرأة عارية على سرير، تتمطى. في النصف الثاني أخرى تخرج من حمام سباحة عارية الثدي. ابتسم لنفسه وتوجه إلى الشرفة. المسافة شاسعة بين صور النساء على شاشة الكمبيوتر وبين المنافسات البريئة على حب البنات أيام الثانوية العامة. نقلة واسعة في الذوق. تذكر تلك الأيام البعيدة، وخلافهما الدائم بسبب البنات، لكنهما ظلا دائما أولاد حتة وزملاء دراسة.

"شريف" يحب "فهمي" ويقدر طهرانيته لكنه واجه "مهاب" ذات يوم برأيه، عندما احتدم الخلاف بينهما بسبب فتاة. أخبره أنه يريد أن يعمل فيها "ابن ذوات"، وأبوه مجرد تاجر فاكهة، ازدهرت أعماله بسبب علاقات مشبوهة أثناء عمله في شركة المطاحن. الله أعلم ماذا كان يعمل. ذلك الكلام الجارح أدى إلى قطيعة في الجامعة. أثناء مرض والده بسرطان العظام في نهاية الثمانينيات فكر "مهاب" كثيرا في هذا الكلام، وظن أن مرض أبيه قد يكون "تخليص ذنوب". انتهت أيام الصبا، وعادت المودة بسبب الأدوية والمتع، وأخذت المشاحنة بين الديكين سمة المزاح. "شريف" يسخر كثيرا من تقدير "مهاب" لوسامته، وقدرته الجنسية، ويرى أن ثقته في أنه قادر على الإيقاع بأي امرأة، مجرد وهم. يقول إنه لا يرى حقيقة النساء. يحب نفسه أكثر مما يحب المرأة، لذا لن يتمتع أبدا.

قال "مهاب" لنفسه وهو يجلس على مقعد قديم في شرفة الشقة: كلام "شريف" صحيح. لو كنت أحبهن لما سيطرت علي امرأة واحدة، هجرها بمرضني. "شريف" يثبت أنه يحب المرأة في تنوعها. راح يتأمل بيوت الشارع القديمة، والشرفات الساكنة في الليل، تصلها أضواء الشارع الخافتة، ويشع من بعضها ضوء النيون الفضي.

يحتاج الليلة إلى فكرة تزيح حسه بالهجر. يدخن ويفكر في صاحبه الذي تزوج وأنجب ثلاثة أولاد، ولا يكف عن مطاردة النساء بشهوة لا تهدأ. قال له ذات يوم إنه لا يمكنه أن ينام دون أن يعاشر امرأة. أحيانا ينام مع واحدة هنا في شقة الدروس، ثم يذهب ويكمل الليلة مع زوجته.

جاء شريف ترافقه رائحة الكلونيا، يحمل صينية عليها كوبان من الشاي.

جلس في مواجهة مهاب:

"عرفت من فهمي أنك طلقت زوجتك."

"يعني."

رفع شريف حاجبيه الكثيفين الملتصقين ونظر بثبات إلى صاحبه:

"يعني طلقتها؟"

"بصراحة لا أعرف."

احترم "شريف" حيرة صاحبه وحزنه وقلب الأمر مزاحا. أخبره أنه تعرف إلى امرأة جميلة موظفة، تدير شبكة للبنات الصغار، ثم ضحك قائلا:

"أعرف أنك تحب البنات الصغار."

صمت ثواني وقال بجدية:

"لو أردت فتاة جامعية ماشي. بنت في ثانوي ماشي. أي طلب تقدر أم باسم على تدبيره."

جاء مهاب من حيرته:

"بجد؟"

"يابني أنت وصاحبك من سكان كوكب الخيال."

ضحك "شريف" وهو يلف سيجارة بعد أن رش ذرات الحشيش على سطح الدخان:

"كبروا الصيدليات واخسروا الحياة."

"مهاب" يشك في الحكاية، لكنه يعرف "شريف"، في هذه الأمور على قدر ما يقول. سأل عن تفاصيل أكثر. حكى شريف الحكاية. كانت زوجته تقيس الفستان عند ترزي في مساكن البطرويشي. تأخر في العمل، ثم ذهب ليصحبها إلى البيت. أخبره الترزي بأنها رجعت في تاكسي. يومها قابل تلك المرأة. يعرفهن من الرائحة والنظرة. انتظرها في السيارة أمام باب العمارة وعرض أن يوصلها. ركبت معه. اطمأنت إليه وأخبرته بكل شيء. جربها مرة، وطلب تلميذة في الكلية. حققت الأمر، لكن الأجر عالٍ، ثم

ضحك وحكى ما هو أدهى من ذلك.

ناظر المدرسة التي يعمل بها أعزب بخيل يريد أن يحوش كل مليم. أحب أن يتزوج بعد أن تعدى الخمسين؛ فتاة ترعاه في الشيخوخة. قاده أحد المدرسين إلى قرية صغيرة فيها بنات، يمكن للواحد أن يتزوج بنتا بألف جنيه، ويشغلها خادمة أيضا.

"هناك أشياء كثيرة من هذا النوع."

قال شريف:

"أحببت أن أقول لك إن هذا يحدث هنا في تلك المدينة الصغيرة، تخيل لو سافرت إلى القاهرة أو الإسكندرية. الدنيا واسعة يا دكتور."

أشعل "مهاب" سيجارة أخرى، وهو يفكر أن الدنيا ضيقة مثل خرم إبرة، وأبدى دهشة كبيرة تجاه الحكاية الثانية.

قال شريف بسخرية:

"يا دكتور، الناس في بعض القرى، لا تجد ما تأكله، والرجل ينجب أورطة عيال، يزوج البنات بهذه الطريقة، فم وانزاح بعيدا عنه."

ثم أكمل:

"على العموم الحكاية لا تحتاج تخمينا، تعال نسافر لو تحب الآن، أجيب لك واحدة بألف جنيه، بنت بنوت."

مهاب حائر وهو يرى الجدية التي ارتسمت على وجه "شريف". خائف من تلك البؤرة.

جاءت صورة "ريم" عارية الكتفين تنشر الغسيل في البلكونة: هل تفكر في الزواج مرة أخرى؟

رغبة التزاوج ؛ أصل الحياة، تلعب بنا تلك اللعبة الخطرة.

***

رن التليفون وأيقظه من النوم:

"لم تخط عتبة البيت منذ يومين."

تبين صوت أمه، وعرف أنها تكتم غضبها. انتبه:

"نوسة بنت خالتك مسافرة ولا بد أن تسلم عليها."

تمطى في الفراش ونظر إلى الساعة. الحادية عشرة. كان المفروض أن يصحو في التاسعة، لينجز أمرا في مؤسسة الأدوية ونقابة الصيادلة. سار حافيا على البلاط، يشعر بأن "ريم" كانت معه طول الليل، في رحلة سفاري في الصحراء.

في ضوء القمر رقصت رقصا ناعما، كأنه حركة الهواء الخفيفة، كأنه السكينة في نور القمر وصمت الصحراء. أخذ حماما وهو يفكر: من أين جاءت الموسيقى الهادئة التي رقصت عليها ريم؟ كانت هناك موسيقى خافتة وضوء القمر ينير التلال البعيدة.

نزل إلى الشارع. غشيت عينيه أشعة الشمس اللامعة. قاد السيارة ومر على مؤسسة الأدوية لكي يوصي على الطلبية الجديدة. اتصل بفهمي، وأبلغه بما حدث في المؤسسة. توجه إلى نقابة الصيادلة. وجد شارع صدقي مغلقا من شارع البحر، وسيارات الأمن المركزي الزرقاء تصطف من أول كنيسة الكاثوليك حتى دار الكتب. صف طويل من العساكر بجانب سور إدارة الجامعة. أخبره الضابط بأن الشارع مغلق من شارع سعيد أيضا. سأل مهاب عن السبب. قال: "ولاد الجزمة الصيادلة الإخوان عاملين تضامن مع غزة." حياه من داخل السيارة وقادها باتجاه بيت خالته. لكل إنسان طريقته في عيش الحياة. الإخوان لهم طريقة، وأصدقاء فهمي في الحزب الوطني لهم طريقة، والدكتور نبيل ملاك، والشيخ عصام وأنا، وخالتي.

في مساكن الموظفين. طلع الدور الثالث، وسلم على نوسة بنت خالته. جلس قليلا يمازح خالته، حتى ينهي

فنجان القهوة، واعتذر عن أنه لن يتمكن من البقاء للغذاء. توجه إلى بيت والدته يلحقها قبل نوم الظهيرة.

كالعادة تجلس تحت النافذة ولأن الجو كان باردا غطت كتفيها بحرام ثقيل:

"يا ماما، "نهى" قالت لك: لا بد أن تقفلي شباك للنور؟"

جلس على مقعد بجوارها. لا يجد ما يقوله. قام وأعد لنفسه فنجانا من القهوة. بعد أن شربه، كفاه على وجهه في طبقه وأزاحه تجاه أمه.

قالت:

"أخوك اتصل مرة ثانية وهو قلق عليك."

قال بصوت خافت:

"طمنتيه"

تمعنت في الفنجان:

"سكك ضيقة."

"واحدة مفتوحة والثانية مقفولة."

تمعنت:

"مبنى غريب كأنه محطة القطر."

"أنت على وش سفر."

ضحك:

"يا ماما، من على وش سفر هو فهمي."

أكمل مزاحه:

"لا يهم، أنا وفهمي واحد."

قالت أمه وهي تدقق:

"صخرة تجلس عليها بنت صغيرة."

أمسك الفنجان وراح يفحص أشكاله، باحثا عن البنت الصغيرة التي تجلس على الصخرة. تذكر "ريم"، وخاف أن تسأله متى يعيد زوجته.

وقف يلم مفاتيحه وسجائره وأخبرها بأنه سوف يمر عليها غدا.

أدار السيارة كأنما يتخلص من مأزق وانطلق متعجبا من جلوس أمه فترات طويلة في نفس المكان. يا ترى ما هو إحساسها بحياتها؟ ما هي الصور التي تخطر لها طول النهار؟ ربما انتقلت الأفلام العربي التي تشاهدها وسكنت ذهنها بدلا من حياتها.

***

تميل "ريم" تجاهه. تتفحص الصور والأشكال التي ألفها

البن في قاع الفنجان. تشير بإصبعها إلى رجل مهيب يلبس عمامة في ركن الفنجان. تدعي أنها لا تراه. تميل أكثر حتى يحتضنها. تتلوى بين ذراعيه، ثم تقوم قائلة إنها متعبة. تعود مرة أخرى، وتنظر إلى قاع الفنجان، وتستغرق. يخاف أن يوقظها من لحظة السريان في النوم. ينصت وتتنبه حواسه، لأنه يقترب من منبع السحر.

تقول إن أباها كان مثل أعيان الريف. يرتدي الجلباب البلدي كأنه عملة. شعره فضي وسوالفه طويلة، وأنفه مستقيم. الملابس البلدية تليق عليه كما تليق عليه الملابس الأفرنجي. عندما تجهز له السيارة المرسيدس لكي يسافر إلى القاهرة، يرتدي البدلة الكاملة ويظهر كأحد بشوات العهود القديمة. لا تعرف لم مات بهذه السرعة.

تنظر إلى وجه "مهاب" مذهولة: "لم مات بهذه السرعة؟" لمَ لمْ ينتظر قليلا حتى يرى حبها له؟ ثم تسأل: "أين يذهب الموتى؟" تصمت ويظهر في عينيها طيف من الذهول: "صحيح لم مات بهذه السرعة؟ هل يمكن أن أراه مرة أخرى؟"

تبدو كأنها تطلب من "مهاب" أن يعيد إليها أباها، وتقول مثل طفلة غاضبة، إنها تحبه، وتريد أن تراه الآن.

يشتعل البريق في عينيها، وتحضر لحظة غيابها. تواصل النظر إلى وجهه، كأن عليه أن يعيد الآن أباها من موته. نظرة العين والتحديق المستغرق الشارد يكشف له لمسة من الجنون.

تنتبه وتنزل دموعها ثم تتحدث عن رائحته التي تشمها في الفضاء، فتقوم من النوم، كأنه جاء لزيارتها ومضى. لا نعرف إلى أين يذهب الموتى، لكنهم يعرفون أين نعيش، ويجيئون لرؤيتنا. الأحلام غير مشبِعة، تود لو تراه مرة واحدة، "بحق وحقيق".

تبكي صامتة ويكبس عليها الحزن. يظن "مهاب" أن حزنها سوف يستمر طول اليوم، لكنها بعد قليل تنسى كل ذلك، وتجلس لتشاهد التليفزيون بنفس الاستغراق الذي بكت به منذ قليل.

***

أغلق الصيدلية.

الشارع مبلل بالمطر.

ضوء أعمدة الإنارة خافت يلمع على الأسفلت.

رائحة أول الأمطار.

ماذا تفعل ريم الآن؟

الثانية صباحا.

لا بد أنها فارقة في أحلامها.

لا بد أنه مجنون، لأنه تمنى أن يدخل أحلامها خلال قراءة الفنجان.

رائحة المطر والأرض.

ينظر إلى السماء.

سحاب أبيض يمر في صفحة السماء.

يمر، يمر، يمر،

نجوم تبرق كلما مرت سحابة.

من يدخن الآن في أي بلكونة، ويراه معلقا بصره بالسماء، لا بد أن يظنه مجنونا.

مجنون، لا بد، أنه مجنون.

السيارة تسكن مكانها.

أخرج الموبايل وطلب ريم:

رنين

ينتظر بحة صوتها المحببة.

رنين

يطلبها مرة أخرى

رنين

أدار السيارة.

لو يحلم بها ترقص في ضوء القمر مرة أخرى.

* * *

تحب "ريم" إعلانات التليفزيون أكثر من الأغاني والمسلسلات، وتنتبه إلى سرعة الإيقاع والمرح والعوالم الخيالية التي تثيرها الإعلانات، معجبة بالعقول التي ابتكرت هذه الثروة من الحكايات الملونة. لا تطيق نشرات الأخبار. تتهكم على الوجوه المقمرة الثقيلة الدم والروح، وتتساءل ما الذي يجعلهم مملين وسمجين بهذا الشكل؟

عندما سقط حملها الأول، أخبرت "مهاب" أنها خائفة ألا تتمكن من الإنجاب. يومها ضحك، لكنها كانت تتحدث بجدية، وفي الأيام التالية أصبحت دموعها تنهمر بلا سبب عندما ترى أطفال الإعلانات يزحفون على بلاط لامع أو عشب أخضر، مغمورين بضوء الشمس.

تربط شعرها بمنديل وتبدأ تنظيف البيت يوم الجمعة، متعجلة، تريد أن تنتهي من الغسيل والطبيخ والكنس وكل شيء، حتى تأخذ حمامها وتتعطر وتمدد مسترخية على الكنبة، أو تخرج للقاء زميلات الكلية، أو تزور أقاربها. أثناء جلوسها شاردة أمام التسريحة تمرر المشط في شعرها الطويل بلا

غرض، وتنظر إلى ملامحها. أحيانا تربط رأسها بمنديل أزرق، وتشده بقوة من الخلف، وتبقى طويلا تشاهد التليفزيون، لا تتحرك، لا ترد على التليفون ولا جرس الباب، وتترك البيت على حاله.

ذات يوم دخلت غرفتها في المساء وأطفأت النور. سألها مهاب إن كانت ستنام في هذا الوقت المبكر. قالت إنها مرهقة. في منتصف الليل قامت متعبة وتقيأت. عرف أنها حملت مرة أخرى، وبدأت مخاوفه. أجلسها على كنبة الصالة. وجهها شديد الاصفرار. مرتخية كأنها بلا أعصاب. تميل معه، وتسند رأسها على كتفه. تحدق في الخلاء كأنها ترى ألمها عندما سقط الحمل السابق.

قالت:

"يمكن دور برد؟"

قال مهاب:

"أنت حامل."

نظرت إلى وجهه غير مصدقة. بهذه السرعة؟ لم تفق من الحمل الأول، والثاني، وقد مرضت في الحمل الأخير ونزفت بشدة.

قالت بصوت خفيض ونبرة متهكمة:

"ضروري أحمل، أنت لا تتركني ليلة واحدة."

في الصباح، دخلت الحمام وغابت فيه. خرجت بوجه حي متيقظ، وإن كان شحوبه ما زال باقيا. ارتدى "مهاب" ملابسه وجلس ينتظرها في الصالة. ارتدت ملابسها ببطء. كان من الضروري أن تحمل حتى لو ماتت. يظهر في طيفها وفي حركتها ذلك التصميم المضمر، جدية لم يعهدها في غير موضوع الحمل.

الحادية عشرة صباحا. الشوارع خالية في هذا الوقت، بعد أن دخل الأطفال المدارس. عيادة طبيبة النساء في عمارة عالية بالقرب من ميدان المحطة. وقف "مهاب" في الشرفة يطل على المساحات الواسعة من البيوت. الشبكة المترامية من الحارات والبيوت والأسطح والبشر، هذه الكثافة المربكة والتي ترشح بالأمراض، والمتع السرية.

ألقت الطبيبة شعرها إلى الخلف، ووجهت كلامها إلى "مهاب"، بنظرة باسمة وعينين عسليتين خلف نظارات بلا إطار:

"لا بد أن تستريح خلال الشهرين القادمين."

مالت لتكتب الروشتة، ثم أطاحت بشعرها إلى الخلف مرة أخرى. شابة، لا ترتدي حجابا. أعجبت

"مهاب"، فظل يسألها أسئلة ساذجة. ابتسمت وقالت:

"باختصار، راحة تامة."

ترقبه "ريم" وهو ينظر إلى الطبيبة بإعجاب، قرصته بحدة في ذراعه وقالت:

"سامع؟ راحة تامة."

***

بعد الولاد ظلت نائمة فترة طويلة.

جلس في طرقة المستشفى يدخن. اندهش عندما رأى أمه تصعد السلالم ببطء. قام يقابلها وقال مازحا:

"يا ربي، أخيرا تركت مقعدك تحت شباك المنور."

قالت من فورها:
"ولد ولا بنت؟"
"بنت."
"أحسن من الصبيان."

اضطرت باعتبارها جدة أن تفارق مكانها كي تشهد ميلاد حفيدتها. بوجه باسم أطلت على الطفلة وقبلت كفها المطبق، ثم عادت إلى الطرقة. خرج معها يوصلها.

قالت:

"انتبه أصبح لك أبناء، فاهم؟ يعني ذرية."

نظرت إلى وجهه غير مصدقة من أنه سوف يتنبه. ثم توجهت إلى السلم رافضة أن يوصلها إلى البيت.

ظل جالسا في طرقة المستشفى، يفكر في كلمة "ذرية". لم يقصد من أمر الزواج غير "ريم"، لم يكن يقصد فكرة أخرى من وراء حبه لريم. بعد الحب لا بد أن تأتي الذرية، ماذا تعني ذرية؟ وهل الأمر هام إلى هذه الدرجة حتى تتخلى أمه عن كمونها في البيت وتخرج رغم مرضها لترى ذريتها؟ النساء يحملن فكرة الذرية بطريقة لا يفهمها. أطل على النائمة والطفلة بجوارها تحرك يديها وقدميها. ستكون ذات يوم "ريم" أخرى. جاءت لحظة تعجب كأنه يشهد معجزة.

***

الرقص فتنة "ريم". يوم تركته يتزل وغامرت بفسخ خطوبتها كان ذلك من أجل أن تكمل الرقصة. تيار من الحيوية يسري في الجسد بمجرد انتشار الموسيقى. كم مرة أعجبتها موسيقى ورغبت في الرقص، لكن الأمر لم يتم؟ لا يمكن أن يرقص المرء لنفسه، يمكن أن يغني لنفسه، لا بد

من طرف آخر في الرقص، تطل من عينيه نظرات إعجاب، لا بد من مرايا تحول الرقص إلى بهجة، إلى تموج من الإثارة.

في المرات التي شاهدها ترقص شعر برجفة من نوع خاص. رجفة دفعته ليفكر أن روح "ريم" الحقيقية تنطلق في حالتين: أثناء الرقص، وأثناء ممارسة الحب.

ذات يوم شعر بخوف أثناء رقصها، فقد رأى كيف توارى الغلاف الخارجي لريم؛ توارت القشرة الهشة للكائن الذي لا بد أن يتصرف بطريقة معينة في حضور الناس، وهبّت روح أخرى لايعرف من أي مكان جاءت. في الرقص والحب تتحرر، تجد سجيتها، وتستمتع بالحيوية المبثوثة في الجسد. يفكر "مهاب" أن جسدها يفهم أكثر مما تفهم، عندما يبتكر حركته ويبدع طرقا لا تخطر على البال لتلوين حركته. يشعر أحيانا بتلك الرغبة المضمرة في أن تفارق حياتها، وتحن إلى بعث ما في الجسد من أسرار، ربما توق عميق إلى نقلة أخرى، إلى أمر ليس من هنا، تطلُّع إلى مكان آخر، وزمن آخر.

يوم السبوع، رغم تعبها، أصر أقاربها أن ترقص. لم يتوتر من رقصها ولم يخفه. كانت مرهقة، تشير إلى الحركات ولا تنفذها، كأنها جسد من خزف. تحولها إلى أم أعطاها انطباعا

آخر، كأنها تتذكر جسد الأنثى. تتطلع بدهشة إلى "منى"؛ قطعة منها قد انفصلت وأصبحت كائنا آخر. كان الأمر غريبا ألا تتمكن من الرقص بكامل حيويتها ومع ذلك تظل فاتنة. وقف مهاب يراقب حركتها: من الصعب أن يفهم اللغز. ولاح له أنه يخاف من تفجر الطاقة النائمة؛ الحس الغريب الذي يسيل منها عندما ترقص.

***

في الليل يغلق الصيدلية.

الشارع ساكن.

أخرج الموبايل وطلب ريم.

رنين

....

ينتظر

سوف يسمع صوتها بعد توقف تلك الرنة.

رنين

***

قال فهمي:

"أنت لخبطت حياتك منذ البداية."

قال مهاب منفعلا:

"عشت ما أريد."

أغمض عينيه:

"ما حدث لي من صنعي."

تغير وجه "فهمي" وقال بحدة:

"اسمع. هناك أخبار جديدة."

استمر "مهاب" مغمض العينين، والسيجارة معلقة بين شفتيه:

"مينا ابن عمي كلمني من أمريكا. احتمال أسافر الشهر القادم. سأبقى هناك ثلاثة شهور، أجرب إن كنت سأتحمل الجو. يعني سوف أغيب عن العمل، وأنت في هذه الحال خطر على ما اجتهدنا من أجله عشر سنوات. لو لم تصحُ فسوف يضيع كل شيء. فاهمني؟"

فتح عينيه وتطلع إلى وجه صاحبه، ولم يتكلم.

أدرك "فهمي" صعوبة ما قال. عرف أنه يزيد تشوش صديقه. قام من أمام الكمبيوتر. دخل المخزن في نهاية الصيدلية وغاب لحظات.

عاد قائلا:

"كلمت مراد ابن خالي سوف يتسلم العمل مكاني."

أغمض "مهاب" عينيه مرة أخرى.

دخان السيجارة يتموج حول رأسه.

"سوف يريحك أكثر مني."

أكمل مُطَمئِنا:

"ستمر هذه الفترة."

قال "مهاب":

"وإن أعجبك الحال هناك؟"

لم يأت الرد.

ظل "فهمي" ينظر إلى شاشة الكمبيوتر.

أدرك "مهاب" الإجابة.

دخلت فتاة صغيرة وطلبت دواء للحكة. انشغل "فهمي" بالحديث معها.

ظل "مهاب" صامتا يراقب خيوط الدخان تتراوح في الفضاء. لم يعد ينتظر إجابة. يتذكر فيلما أجنبيا شاهده مع "ريم" اسمه: "الأرض تميد". عنوان الفيلم يمثل حالته. أشعل سيجارة أخرى، ولم ينتبه إلى مغادرة الفتاة الصغيرة الصيدلية.

مر بمثل هذا الوضع أيام موت أبيه. يبدو أن ذلك هو طابع الأمور، وليس حالة النعاس الشفاف التي عاش بها السنوات الماضية. هذه هي طبيعة الحياة، كثيرا ما كانت

على هذا النحو. لم يخاف الآن؟ سوف يعيش مثلما عاش يوما بعد يوم. لا يوجد غير اليوم. الحياة تنتهي كل يوم عندما يغلق الصيدلية في الليل.

غمر الحزن قلبه. فكر أن "ريم" بهجرها للبيت نزعت من حياته البهجة. خلطت حياته بضربة واحدة. آن الأوان أن يخوض تجربة أخرى. عليه أن يواجه ما يخاف من مواجهته: "ريم لم تعد تريدك." غصة كالصهد في الأحشاء. طوح رأسه: رغم المرارة عليك أن تردد تلك العبارة وتتقبلها: "ريم لم تعد تريدك."

عليك أن تبحث عن الحب في مكان آخر.

ترك مناوبته وغادر الصيدلية.

***

قاد السيارة إلى الطريق الزراعي. سار في الظلام فترة طويلة. وجه "ريم" يطل عليه، وصوت "فهمي" يحذره من تشتته. هناك أمر خفي في الطريقة التي يتحدث بها صديقه. انتابته نفس الشكوك من قبل؛ أطلت برؤوسها الصغيرة بعد زيارة حماته. ربما وجدت الوساوس، في حيرته، ملعبا تتحرك فيه براحتها، وجهاز الاستشعار الذي كان يفخر به طوال عمره، تعطل.

هل بدأت الأوهام؟

عندما ذهب مساء أمس، تحت إلحاح أمه، لزيارة أخته "نهى"، قضى وقتا طيبا يلعب مع ابنها، وقبل أن يغادر البيت قالت: "لا بد أن تعيد زوجتك" و"فهمي" يتحدث اليوم بيأس، كأنه فقد الأمل في إصلاح تشوشه، ووسمت كلامه نغمة غريبة، حاسمة. ما الذي حدث؟ هل سرقته غفوته واطمأن، بدون وجه حق، لحواسه وغرائزه الخفية حتى تغير ما حوله دون أن يدري؟ تغيرت "ريم" وتغير "فهمي" وهو في غيبوبته.

عاد بالسيارة تجاه المدينة مرة أخرى.

قال لنفسه: أوهامك سوف تحطمك. أعصابك المرهقة ستقضي عليك. ولكي يوقف شكوكه، حاول أن يستدعي تاريخ صداقته مع فهمي، من أيام المدرسة الابتدائية، ولفترة موت أبيه، وكيف ساهم في أن ينقذ ما تبقى من الميراث، وأدخله شريكا في صيدلية شارع النحاس، ثم افتتحا معا صيدلية شارع توفيق باشا، وواحدة أخرى في قرية قريبة من طنطا.

"فهمي" لا يمكن أن يكون من عينة الدكتور "نبيل ملاك"، الذي يبث مخاوف عن خطورة الأوضاع

الاقتصادية، في عائلته وأقاربه لكي يحصل على أموالهم ويستثمرها في تجارة الأدوية. "فهمي" ليس من هذا النوع. "فهمي" جدع. لكن السؤال ظل يجاوره أثناء اقترابه من المدينة: "هل يريد أن يخرجه من الشركة؟"

قال لنفسه وهو يركن السيارة أمام الصيدلية: "الأرض تميد."

أمر بواب العمارة أن يغسل السيارة، ورأى "شريف الشايب" يميل تجاه "فهمي". يبدو أنه يتفاوض على طلبية أخرى من الترامادول.

جلس "مهاب" على أول مقعد.

قال شريف:

"ما لك يا دكتور؟"

لم يرد مهاب.

"لا تأخذها بجدية أكثر من اللازم، الحياة مجرد رعشة."

مهاب يدخن في صمت:

"لعبة يا صاحبي، الحياة لعبة."

ضحك فهمي:

"اسمع كلام الحكيم."

انتهز شريف الفرصة:

"طبعا حكيم، أعرف الدنيا من غير أوهام."

نظر تجاه مهاب:

"لا أعيش في حلم يقظة مثلكما."

ضحك فهمي من قلبه:

"أحلام يقظة؟ يا خبر على دماغك. الصنف خرم مخك."

"أنت لأ يا فهمي. أنت تعيش في حصة حساب."

أشار تجاه مهاب:

"صاحبك هو من يعيش في حلم يقظة."

تبادلا المزاح وظل "مهاب" على حاله يفكر: كيف حدث هذا وهو غاف؟ تغيرت ريم، وفهمي تغير، وكل شيء يتحرك حوله، وهو في مكانه. لا بد أنه فعلا يعيش في حلم يقظة.

جر "شريف" كرسيا وجلس بجواره، مال عليه وهمس:

"جرب مرة واحدة. لن تخسر."

"..................."

"بنت في الجامعة وعهد الله تخليك تجيبهم في هدومك."

قال مهاب:

"سأمر عليك نتكلم."

قال "شريف" وهو يميل تجاهه:

"سوف تجرب وتشكرني، وتنسى امرأتك وغيرها، وتتخلص من خرافاتك."

ضحك "فهمي" وهو يترل من فوق السلم في طرف الصيدلية:

"اصح يا مهاب سيورطك."

الأمر بعيد عن التصديق، لا يمكن أن ينام مع امرأة لا يعرفها. فعلها أحيانا أيام الشباب، عندما كان يقيم عدة علاقات في نفس الوقت. مضى على ذلك زمن. الأيام تمر بسرعة. يبدو كأنه عاش قرنا رغم أنه في التاسعة والثلاثين من عمره.

هل يمكن أن يعيد ذلك الشاب إلى الحياة؟ بدا له الأمر بعيدا عن التصور. هناك تغير جوهري قد حدث في روحه وجسده. ما زال يحب الأنثى. تذكر طبيبة النساء التي حاول أن يعاكسها. لكن الأمر لا يتخطى ذلك. لا يتحرك جسده. لا يريد غير مرح المعاكسات وتفتح النساء أمام إعجاب جديد.

غادر فهمي وشريف الصيدلية.

فكر كثيرا أن يتصل بريم. أمسك التليفون ثم أعاده إلى مكانه فوق المكتب. أشعل سيجارة. دخنها مغمض العينين.

***

تعلم "مهاب" قراءة الفنجان من أمه وساعده خياله على تلوين الأشكال التي تتكون في باطنه. في الفترة الأولى من الزواج اعتاد أن يقرأ لريم فنجانها، ثم أصبح ذلك طقسا يوميا يداعبها به، لكنها أحبت الأمر. كل يوم تنتظر المساء كي تشرب القهوة ويقرأ لها الفنجان. ثم أصبح إدمانا، عندما تزهق تنظر إليه بشغف وتقول: "اقرأ لي الفنجان."

أثناء قراءة الفنجان تتحول "ريم" إلى كائن يؤمن بكل ما في الدنيا من خرافات. تؤمن بأن هناك معنى خفيا للطيور العملاقة، ومعانٍ للوجوه والعيون والثعابين والثعالب. تقدس تلك الصدفة التي ترسم على سطح الفنجان أشكالا، تستجيب لها من أعماقها، وتستغرق متوترة في تأملها، وتصر أن تستخرج منها الخبايا والنبوءات. تظل تحدق في الفنجان وقتا طويلا حتى شعر "مهاب" ذات يوم أنه أخطأ عندما أغواها بتلك اللعبة، فقد وجد فيها حبها للخرافات والأمور غير العادية، تجسيده.

الأشكال التي يكونها البن في قاع الفنجان تساعد ريم

على التذكر. في بعض تلك الجلسات بعثت صورا لأشخاص طفولتها. أحيانا يحضر حسها الغائر بالمدينة التي ولدت فيها ويشع بريق عينيها وهي تتعجب من أنها عاشت هناك ذات يوم. تتذكر عم حسن البقال ورائحة الجبن القديمة التي تفوح من محله، وأم سيد بائعة الدوم أمام المدرسة الابتدائية، والدرويش الذي كان يقف أمام باب الدار بجلباب أبيض وعمامة خضراء، في أول يوم من رمضان، وعامل الاستاد الرياضي الذي صادفته كثيرا في الشارع، يمد يده للمارة بصورته وهو بطل كمال الأجسام، ويكشف ساقه التي دمرتها حادثة سيارة ويسميه تلاميذ المدرسة: أبو رجل مسلوخة.

ذات يوم ظهرت في قاع الفنجان خطوط تشبه الضفائر، فتذكرت "نبيلة المهدي"، زميلتها في المدرسة الابتدائية. ابنة محاسب البنك، وتحدثت عن إعجابها بضفائرها الثخينة رغم أن شعرها لم يكن ناعما. تنظر "ريم" إلى الضفائر بتعجب طفولي وتحكي عن مغامرتهما في جنينة البرتقال القريبة من بيت "نبيلة". تضحك وهي تتذكر ثم تقول: "رائحة زهور البرتقال في إبريل تغم النفس من داخل الجنينة، رغم أنها جميلة من بعيد." حاول "مهاب" أن يستدرجها ليعرف ما حدث في حديقة البرتقال لكنها أفاقت

من غيابها ودفعته في كتفه: "أنت مجنون؟"

عم "عزوز" هو الشخص التي حضر بكثرة في أشكال الفنجان. كل لمحة من الأشكال تذكرها إما بالحنطور او الحصان أو به نفسه بجلبابه الأزرق، ووجهه الباسم وشعيرات شاربه الصفراء من أثر التدخين، وحصانه البني الذي يحدثه كأنه بني آدم. في كل مرة يبتسم لها. ربما أحبت نفسها بسبب إعجاب عم عزوز بها. وقدرت ذاتها بسبب نظرته تقديرا عاليا، واعتبرت نفسها بشكل ما، وعلى نحو غامض، أميرة، وراحت تؤكد هذا الأمر، عندما رقصت وهي طفلة في فرح أحد الأقارب وخطفتها قريبتها من قلب العرس بعيدا عن جمع النساء، وهمست لأمها: "ارقي البنت." بعد ذلك تأكد هذا الحدس، وأدركها شعور غامض بأن بها شيئا مختلفا عن إخوتها البنات، عندما حلمت بأنها بقرة مطلية بالذهب، وعندما اكتشفت أن لها هوى مختلفا بالروائح والملامس والأفكار السعيدة، وانتظرت أن تمنحها الحياة البهجة التي تمنحها الحكايات للأميرات.

* * *

شارع البورصة مزدحم. صخب شديد أمام شارع درب الأثر. آخر أيام رمضان. يقود "مهاب" السيارة ببطء،

تاركا أفكاره تسير على هواها. رأى عمته الكبيرة تقف حائرة، تنتظر سيارة أجرة.

أوقف السيارة وقال:

"تأخرت عن ميعاد النوم."

مالت كي تتبين الوجه.

ابتسمت قائلة:

"مهاب؟! ازيك يا ولد."

ركبت بجواره. أخذه وجودها من أفكاره. عمته الكبيرة التي كان أبوه يحبها ويكن لها الاحترام. سألته عن أحواله وعن والدته وأبدت أسفها لأنها لم تعد تزورها. قال:

"هي الأخرى أخذت طريقك، ولم تعد ترى أحدا."

في كل مرة تقابله، لا بد أن تتحدث عن أبيه. تعيد بوجوده وجود الراحل. نوع من تداعي الأفكار. زحمة الشوارع تركت فسحة من الوقت لكي تسترسل في الحديث. مرة أخرى، بعد صمت قصير، أخذت تتحدث عن والده، وكيف كان شهما خطفه الموت بسرعة:

"كان في شبابه نابها وقلنا سوف يصبح أستاذا في الرياضيات. أستاذا كبيرا. لا أعرف ما الذي حدث له في الجيش. خرج بعد أن قضى سبع سنوات، يبحث عن حياة

نشطة، أراد أن يتاجر، ويسافر، ويلعب."

صمتت قليلا وأكملت:

"عاش حياته ونصيبه."

سألت:

"ماذا فعلت مع زوجة عمك؟"

قال ببساطة:

"خلصت علي، أخذت ما أرادت، وأكثر."

استغرقت في أفكارها.

أوقف مهاب السيارة أمام بيتها. أصرت أن يتناول معها فنجان قهوة.

قالت وهي تنزل:

"الحمد لله أني شفتك وتكلمت معك."

فتحت الباب وأنارت المدخل، وقادته إلى الطابق الثاني. نادت بنت ابنتها التي تقيم معها. طلبت منها أن تعد فنجان قهوة مضبوطا. قالت وهي تصعد السلم أمامه إن البنات حمل ثقيل. فهذه البنت تخرجت في قسم المكتبات ولا تجد عملا حتى الآن، وتقيم معها لتؤنس وحدتها. قالت: "أدعو الله أن يوفقها إلى إنسان يصونها. لا نريد غير ذلك، لكن من الصعب أن تجد ابن حلال هذه الأيام." كررت

الجملة بطريقة أخرى، وهي تفتح باب صالون عتيق، الهواء فيه مكتوم، كأنه لم يفتح منذ سنوات. زيارة لم تكن على البال، لكنه لم يستطع أن يتخلص من القهوة العائلية الإجبارية.

جلست على المقعد المقابل وبدت كأنها سيدة من زمن قديم، بالحجاب الملفوف على رأسها على شكل عمامة. حضرت تقريبا كل أفراح العائلة ومآسيها، راعية لكل الخلافات، لا تترك خلافا إلا وتسعى إلى رتق الصدع حتى ماتت ابنتها الكبيرة، فهجرت العائلة وأصبحت حبيسة هذا البيت. رغم ذلك بدا أنها لم تكف عن الاهتمام بشأن العائلة عندما راحت تحدثه عن أبيه وأصل الخلاف مع زوجة العم وهي تبدي دهشة من تبدلات الحياة:

"بعد هذا العمر، لا أعرف الناس. لا أصدق ما يحدث هذه الأيام، ولا ما حدث من قبل."

رفعت وجهها كأنها مضطرة أن تعترف بما لا بد منه، جزاء هذه المصادفة الطيبة:

"كل ما أعرفه أن زوجة عمك كانت تريد المرحوم والدك."

أوضحت الجملة:

"كانت تريد أن يتزوجها بعد موت عمك."

فتح مهاب عينيه على اتساعهما، وبدا أنه، فجأة، يكتشف ما عجز عن فهمه طوال تلك السنوات، ويلمس أصل الكراهية التي أودت بأغلب ما تركه أبوه من أموال ومشاريع. بالصدفة تكشف عمته أمامه، النقطة الحساسة التي شعر بأن العائلة تعرفها، لكن أحدا لم يقدر على الحديث عنها في العلن.

سمع حفيف شبشب على السلالم. دخلت فتاة نحيلة، وجهها شاحب، لا يتعرض لضوء الشمس، وخمن أن تلك الفتاة تظل في فراشها طول الوقت، ويحيطها النعاس بهالة من الصمت. وضعت الصينية على المنضدة وسلمت عليه.

بعث دخول الفتاة لمسة حيوية في السيدة العجوز وقالت مندهشة:

"ألا تعرفينه؟ مهاب ابن أنكل محمود.."

حاولت الفتاة أن تبتسم وقالت بضع كلمات مجاملة وانصرفت. سمع خطواتها تنزل السلم بسرعة. سكنت السيدة في صمتها وهي تتناول القهوة بوقار. ترفع الفنجان بحساب وبطء وتضع أصابعها تحته بخفة. تأخذ رشفة رقيقة، تعيد آداب السلوك التي تعلمتها في صباها.

قالت مرة أخرى:

"الله يرحم الجميع."

وضعت الفنجان بنفس الطريقة الوقورة على رخامة المنضدة:

"كل شيء راح لحاله."

يرتكز "مهاب" بكوعه على مسند الكرسي، ويركن وجهه على كفه، ما زال يشعر بالرهبة والدهشة تجاه الحقيقة التي عرفها الأقارب وكان غافلا عنها. سمعها تقول كأنها في حوار داخلي:

"ربما حزنت عليه أكثر من أي شخص آخر."

"المرحوم كان يعرف ما تريد زوجة أخيه، لكنه لم يظهر مرة واحدة أنه يعرف."

"كان يبتعد عن نارها."

"طول ما هو عائش كان عندها أمل."

"لما مات، راح الأمل، فتخلصت منك ما لم تأخذه منه."

ضحك مهاب وقال مازحا:

"أنت تعرفين سر القلوب يا عمتي."

قالت باسمة:

"نصيبي كلهم أودعوني أسرارهم."

***

أدار السيارة واستمر يقودها في الشوارع، بلا هدف، مندهشا من الكيفية التي تنتج الحوادث الصغيرة الخفية آثارا لا يمكن حسابها. كيف يمكن لأمور ليست أساسية في الصراع أن تشكل الصراع؟ تلك المعلومة الصغيرة التي عرفها من قريبته هي المبرر المقبول لتلك الكراهية. حل الفهم محل الحيرة، لكنه ترك حيرة أكبر. كان واضحا أن زوجة عمه لا تريد الثروة؛ فقد رفضت كل الاقتراحات التي قدمها الأقارب بالمشاركة في المشاريع أو بأخذ نصيب من الثروة حسب تقدير كبار العائلة، وظلت مصرة على الصراع حتى نهاية الشوط. وقتها كان "مهاب" يتعجب من تلك الكراهية الخام، من الرغبة الخام في الإيذاء.

فكر في "ريم" وفي زوجة عمه، وخاف من أفكاره. هناك رغبة سرية في الإيذاء تحت تصرفات عادية. قال لنفسه: الحب شيطان يمكن أن يدمر مثلما يبني.

تذكر المسرحية التي نفذتها زوجة عمه في آخر جلسات المحكمة. وقفت أمام القاضي بشعرها المنكوش ترتدي جيب طويلا واسعا، ينزل، فترفعه أمام الناس وتضيق الكَمَر بدبوس إبرة. حكت للقاضي عن مظالم خيالية، عن ليال نامت فيها دون عشاء، وابنها الصغير الذي لا تعرف كيف تربيه. كانت تتكلم بصدق وحرارة كأنها تقول حقائق مع

أن كل حديثها أكاذيب. انتزعت منه ثلاثة محلات في وسط البلد وقطعة أرض فضاء على أطراف المدينة تساوي ملايين الآن.

قضى ليلته في الصيدلية شاردا. تطارده فكرة الإيذاء التي تكمن في الحب. يقوم لكي يقرأ الروشتات ويحسب أثمان الدواء ويعود ليدخن وينظر إلى شاشة التليفزيون شاردا لا يتابع غير أطياف شاحبة تختلط بأفكاره.

فكر أن يغلق الصيدلية ويذهب ليسهر مع شريف الشايب. لكن رغبته جافة، تمر كأنها تنزلق على بلاط ناعم، لا تترك أثرا. حسه بالغدر يجفف منابع رغبته. يحاول أن يفهم من أين جاءت الطعنة؟ يشعر بأن "ريم" وجهت إليه نفس الطعنة التي وجهها إليه ضياح الميراث. تصيبه رجفة كأنه يمشي على أرض تميد، سوف يتوارى في بطنها في أي لحظة.

في منتصف الليل أغلق الصيدلية، دون أن يحاول الاتصال بريم، وظل يقود السيارة في شوارع المدينة الخالية حتى الفجر.

***

قامت من النوم، شاردة.

قالت "ريم" وهي تربط شعرها بمنديل وتمسك المنفضة، وتبدأ في ترويق الشقة. خففت "منى" جو التوتر عندما أصرت أن تكنس الصالة. جهزت الإفطار، وقالت بشكل عابر وهي ترفع الأطباق بأنها تريد أن تقضي اليوم عند أمها. مشتعلة طول الليل في الفراش، في ظنه لا بد أن تصحو متأثبة وتلتصق ببينها. مخطئ عندما فسر الوجوم الذي جهزت به الإفطار على أنه إفاقة الجسد من شهوات الليل وصعوبة اندماجه في الحياة العادية. حملها صمته على الصمت. بعد قليل سمع صوتها من المطبخ:

"أريد أن أغير جو."

"كنا في اسكندرية من فترة قصيرة."

جاءت وجلست على ساقيه وهو ما زال في مكانه أمام ترابيزة السفرة:

"لو لي خاطر عندك."

أخذت حماما، وتجهزت للخروج.

يجلس في الصالة يستعد لصلاة الجمعة يدخن بشرود. "منى" تجمع شرائط حمراء. جاءت "ريم" وجلست بجواره

وضفرت شعر البنت، في صمت وتوتر. شعر بها تتنفس بصوت مسموع. ترك جرنال الجمعة على المنضدة وقام إلى الحمام.

قالت إنها سوف تأخذ تاكسي من أمام البيت.

قالت منى:

"تعالى خذنا بالليل يا بابا."

أشار لها مبتسما.

يدخن ويقرأ الجرنال ولا يفهم شيئا.

يفكر: بعد ليلة صاخبة من الحب. مالها؟ لماذا هذا الانطفاء المفاجئ؟ قام لصلاة الجمعة وعاد إلى خلاء البيت. يفكر باستغراب في اليوم الذي تخرب بدون سبب.

هذا الصباح بداية الانتباه. استيقظ حسه بالعلامات. تنبه أن هناك شيئا متغيرا. في الأيام التالية راح يراقب شرودها وزهقها. يتأكد يوما بعد يوم: ريم ليست في حالتها العادية وأنه مخطئ عندما ركن إلى أنها ما دامت لم تتغير معه في الفراش، فإن أحوالها عادية؛ مجرد وجوم وتبدل في الحالة المزاجية سوف تعبره. مخطئ. بدأ يتشكك في فهمه لتصرفاتها. أكدت الأيام التالية حدسه. غائمة الوجه تدور طول الوقت حول نفسها حتى بدأت مرحلة تحطيم الأطباق.

في البداية انفعل وتعصب عليها، بعدما كسرت عددا كبيرا من الأطباق. ترك البيت ونزل إلى الصيدلية في غير وقت العمل. ذات يوم احتضنها في المطبخ وسط شظايا الأطباق. قالت وهي تبكي: "لا أستطيع أن أعيش من غيرك." غير أنه لم يفهم ماذا يعني ذلك.

نزل معها في المساء ليشتري لها طاقم أطباق آخر.

كسر الأطباق والأكواب أصبح معتادا. لا يمر أسبوع حتى يبدأ الطاقم في العد التنازلي. حالة تحطيم الأطباق والأكواب تؤكد له صدق حدسه.

في النهاية قال:

"لن أشتري أطباقا مرة أخرى، حتى لو لم يبق في البيت طبق واحد."

***

يعود "مهاب" في منتصف الليل، يجد ترابيزة السفرة عليها أطباق العشاء، وبقايا الطعام، وعرائس منى ودُماها في كل مكان، والملابس في الحمام تكومت منذ الصباح ولم تتمكن ريم من أن تأخذ قرار الغسيل، حتى طعام العشاء الذي يتناوله واقفا في المطبخ وهو يعد لنفسه كوبا من

الشاي، بدأت تنساه. أصبحت الفوضى موترة. صعدت حيرته من تبدل أحوالها إلى حافة وعيه.

ذات ليلة شعر أن البيت ضيق، وأنه لا يجد مكانا يجلس فيه. توجه إلى غرفة النوم ليوقظها، ويجبرها على تنظيف البيت في منتصف الليل. وجدها تنام ببراءة وفي حضنها منى في الغرفة الصغيرة، والشباك مفتوح. أغلق الشباك وغطاهما وذهب إلى غرفته لينام. في الصباح أصر أن تنظف البيت. طلبت أن يمهلها اليوم لأنها مصدعة. خرج إلى مشاويره وعاد. وجدها تجلس أمام التليفزيون. أصر أن تنظف البيت حالا.

حدثت الخناقة المعتادة التي تنتهي بالعصبية وأحيانا بالضرب، ثم البكاء، وأخيرا الصلح في الفراش.

ذات يوم كانت في المطبخ تجهز له الطعام قبل أن ينزل مناوبته في الصيدلية. جلس في الصالة يلعب مع منى. شم رائحة دخان. أدرك أنها دخلت الحمام وسهت عن الطعام. ترك ما يحدث يحدث. رائحة الدخان تعبئ الشقة. "منى" بدأت تسعل. جرت إلى باب الحمام وطرقته:

"ماما الأكل المحرق."

في ذلك اليوم أمسكها من ذراعيها ثم رفعها عن

الأرض. كاد أن يلقي بها من نافذة المطبخ. بكت بحرارة، عاجزة أن تعرف ما جرى لها.

أصبح تبدل حالاتها أكثر حدة. في نفس اليوم تتغير أحوالها عدة مرات. تكون في حالة نكد في الصباح. يعود في الليل، يجد البيت نظيفا وكل شيء جاهز. في أيام أخرى تبدأ اليوم مشرقة ويعود فيجدها ممددة على كنبة الصالة تشاهد التليفزيون والبيت في حالة فوضى. تغير أحوالها أصبح مدوخا، حتى أنه لم يصدق نفسه ذات ليلة، عاد من الخارج فوجدها وقد أعدت له عشاء على ضوء الشموع.

بمرور الأيام ازداد ميلها للكآبة. راحت تستغل أي فرصة للعراك، مستعدة دائما أن تلم هدومها وترحل إلى بيت أمها، لولا أحداث صغيرة مثل بكاء منى أو جرس الباب، أو سؤال جارتها عنها. أي حدث بسيط يعوق الفكرة بل يبددها وتنتقل إلى حال آخر، كأنها نسيت ما كانت تنوي القيام به. الغريب أن كل ذلك لم يؤثر على حيويتها في السرير، بل بدا له أحيانا أنها تنتظره، وأنها تشتعل بشهوة عميقة مثل الأيام الأولى للزواج.

***

ارتدى بدلة كاملة لكي يقابل مسؤولا كبيرا في إحدى

شركات الأدوية. قبل أن يغادر البيت دخل غرفة النوم. وقف أمام السرير. "ريم" نائمة. شعرها منثور حول وجهها. ترقد على بطنها وتمد ذراعيها تحت المخدة. رقبتها طويلة، ناعمة مثل رمل انحسر عنه الموج. وجهها بالجاهه. حاجبان ثقيلان مستويان وجبهة ضيقة ينبع منها الشعر الأسود الكثيف. الأنف مستقيم حاد، والشفاه غليظة منفرجة قليلا. التنفس منتظم. غارقة في سابع نومة غير مدركة لوجوده. لمس طرف ذراعها. فتحت عينيها مندهشة.

تحدق في وجهه بنظرة غريبة، كأنما تسأل: "من هذا الرجل؟"

الاستغراب الذي نظرت به إليه، آتية من غيابات النوم، مقبض. عشر سنوات غريب عنها؟ فقد في تلك اللحظة أي أمل. وقف حائرا وهي تنظر إليه، ثوان حتى تعرفت عليه وميزت صوته الخفيض الناقم:

"اصحي"

وبصوت أكثر ارتفاعا:

"قومي."

"فهمي سيرسل دواء الكحة مع صبي الصيدلية."

كل تلك السنين لم يتمكن من أن يسكن أعماقها

وبشكل حسا داخلها. عندما يعيش المرء مع شخص آخر عشر سنوات، يوما بعد يوم، لا بد أن يألفه كما يألف نفسه. لا يحتاج فترة ليتعرف على ملامحه. تصبح طريقته في الوجود محفوظة: طرْق الباب، ودخول الحمام وعادات النوم والطعام.

ما زال غريبا عن ريم.

جسدت تلك اللحظة الغربة التي تمنى أن يبددها أثناء قراءة الفنجان. فعل كل شيء من أجل تبديدها. مضى إلى الصالة. راجع الأوراق ودسها في حقيبته. نزل من البيت مدركا أنه قد فشل. يجب أن يوجه إلى نفسه الأمر الحاسم: "اصحَ"، وليس إلى زوجته. هي بعيدة وستظل بعيدة. في النوم تتوه في عالم لا يعرفه. إن كان يصف تفكيرها بأنه مضطرب، فتفكيره أيضا مضطرب. كيف يتخيل إنسان أنه يمكن أن يرافق زوجته في رحلة نومها، ويزور العوالم التي تزورها؟

قراءة الفنجان حيلة فاشلة للتجول في أحلامها.

***

رجعت خالتها من الكويت في الصيف. طلبت "ريم"

أن تنزل في الليل، لتبيت مع أختيها عند خالتها. هذا الوصول الصاخب بدا كأنه حل من متاعبها وكآبتها، وإحساسها بأن الدنيا أغلقت الأبواب في وجهها، ومنح "مهاب" بعض الأمل. ربما تتغير أحوالها وتعود إلى ما كانت عليه. أراد أن يستريح قليلا من الحس الداكن.

لم تعد إلى البيت في اليوم التالي. اتصلت "رباب" واستأذنته أن تبقى ريم يوما آخر. "تفك عن نفسها." سألها مهاب إن كانت تعرف ما يحدث لأختها. قالت ببساطة: "كل متاعبها سببها البعد عن الله."

"البعد عن الله؟"

كرر الجملة وراءها ببطء، كأنه يكتشف أمرا غاب عن تفكيره.

أكملت رباب: "إن اقتربت من الله، سيفك ضيقها."

لم ير ريم تصلي قط. هو من يفعل ذلك. يصلي الصبح بانتظام، ويواظب على صلاة الجمعة. قالت رباب:

"لا تقلق هي متعبة قليلا."

"رباب" الأخت الوسطى في حلقة البنات الثلاث. متزوجة من رجل يعيش من تأليف الكتب الدينية الصغيرة.

يسكن في بيت من ثلاثة طوابق. بنى غرفتين ودورة مياه فوق السطح وخصصهما للدراسة وتأليف الكتب. يجمع الأحاديث النبوية عن موضوع معين: الطهارة، النجاسة، الحيض، زيارة القبور، وغيرها، وينشرها في كتيبات صغيرة يوزعها الباعة في الأماكن كثيفة التجمع، أو يتسول بها البعض؛ يلقونها في حجر ركاب أتوبيسات القاهرة والإسكندرية. يعيش في الأعلى وزوجته في الطابق الثالث وأمه وأخوته في الطابق الثاني، والطابق الأول جهزه وأجره محلات.

***

بعد يومين عادت "ريم" من بيت خالتها متعبة. ظلت تبكي ساعة كاملة. لحظة اضطراب أخرى. ينظر إلى جسدها يميل تجاه سطح الكنبة. تضم رأسها بذراعيها وشعرها منثور حولها. البلوز النبيتي يكشف جزءا من ظهرها الناعم اللامع تحت الضوء الشاحب للصالة. انتبه إلى نفسه عندما سمع "منى" تبكي في غرفتها. توجه إليها بسرعة وحملها. وقف في الشرفة، يراقب معها عدد الأضواء الحمراء التي سوف تبرق في خلفية السيارات المارة.

خاب ظنه. وصول خالتها الصاخب بدا كأنه ساهم

في ترسيخ الكآبة. كفت عن البكاء. نزل مع منى، ليشتري لها حلوى من الكشك المواجه للبيت. عاد وجد "ريم" قد نامت.

***

يغلق الصيدلية.

الشارع ساكن.

السماء بعيدة صافية.

النجوم متناثرة بلا نهاية.

أخرج الموبايل وطلب ريم.

رنين

***

اتصل برنا الأخت الكبرى. عرف أن الشيخ "عصام" زوج "رباب"، خطب فيهم خطبة طويلة عن العقاب الذي ينتظر العابثين واللاهين وتاركي الصلاة. لم تستطع "ريم" منذ تلك اللحظة أن تتمالك نفسها. انفتحت حنفيات الدموع فجأة.

قالت رنا:

"يجب أن تأخذ بالك. زوجتك ليست في حالة طبيعية."

في الليل زار "رنا" ليعرف بالضبط تفاصيل ما حدث في بيت خالتها.

قالت:

"ريم نفسها لا تعرف ما يحدث لها، أنت من يجب أن يعرف."

قال بجدية:

"أختك لا ينقصها شيء، وإن كنت تفكرين في علاقتنا، كل شيء تمام، اسأليها؟"

ابتسمت وطلبت منه أن يصبر قليلا.

قال مهاب بحيرة:

"لا أعرف ماذا أفعل."

***

صحت "ريم" من النوم، واستغرقت في تنظيف البيت كأنما لم يحدث شيء. أصبحت أفضل حالا في الأيام التالية. وافقت أن يقرأ لها الفنجان والتصقت به، كأنها نسيت نوبة البكاء.

قضت الصيف تقريبا في بيت خالتها. كل عدة أيام تطلب أن يسمح لها أن تبيت عند خالتها، فيسمح لها حائرا مما يحدث، لكنها أثارت دهشته عندما أخبرته بأنها سوف تلبس عباءات سوداء.

سألها:

"لن تلبسي بنطلونات بعد الآن؟"

قالت:

"لا طبعا، سأرتدي العباءة فوق لبسي العادي."

ابتسم.

نظرت إليه في حيرة.

* * *

ريم تحب المنتجات الحديثة. كل منتج جديد يمارس جاذبية شديدة عليها. لا بد أن تتذوق طعمه، وتميز بينه وبين غيره. تحب كل أنواع الشيكولاتة، والحلوى، والمكسرات، وكل المنتجات ذات الأغلفة اللامعة. المكان المفضل لها هو السوبر ماركت. هناك يظهر في عينيها البريق الناري الذي يومض في لحظات الشهوة، وتشعر بأنها كيان له إرادة. تنظر بدهشة إلى التنوع اللانهائي للسلع. نقود الدنيا لا تكفي لتلبية طلباتها. لو خُيرت لحملته معها إلى

البيت. السوبر ماركت مدوخ، مبهج ومحزن، تحب صخبه وتنفق فيه وقتا طويلا.

محلات الذهب لها نوع آخر من الجاذبية. هناك يسيطر عليها إيقاع بطيء وشغف، كأنها تقترب من شيء مقدس. حركاتها تصبح رقيقة. تمد يدها وتلمس المشغولات برفق كأنها يمكن أن تنكسر. انفعالها في محلات الملابس ليس له هذا الصخب ولا تلك القدسية. تبدو هناك حازمة تعرف ما تريد. تصبح أكثر قسوة، وانتقادا للسوقية: لكل جسم مقاسه، ولونه وطبيعته، ونوع الملابس الذي تناسبه. لكل امرأة مجموعة من الألوان تظهر جمالها.

أمام محل العباءات وقف بجانب السيارة يدخن. سوف تتجه إلى الله وتتوب، وتصلي وتحجب نفسها. يشعر بشيء مثير مقلق. في العادة يترك هذه الأمور تمر. يعرف أن الطبيعة تحكم. بعد شهور سوف تزهق وتحن إلى الرقص، إلى أن ترى الإعجاب بجسدها في المرايا وفي الأعين. خرجت من المحل متوهجة، تحمل حقيبة مليئة بالعباءات، عيناها تشعان بالإثارة والترقب.

أول يوم ارتدت العباءة السوداء بدت غريبة، كأنها كائن آخر. لاحظ سطوة الأسود. الحواجب الكثيفة،

وكحل الرموش، والروج الغامق منح الشفتين حلة وشهوانية. ربما وجدت طبيعتها في اللون الأسود الموشى بأحمر خفي. بدت عفية وشهوانية. هب من مكانه وحملها إلى الفراش. انتبهت وحاولت التملص منه. يعرف أنها أضعف ما تكون في تلك اللحظات.

قالت:

"ومشوارنا؟"

"لا يهم."

في ظلمات غرفة يطوف بها ضوء منتصف النهار، غمرته حيويتها. مستغرقة مفتوحة الوجدان. متخلصة مما يشوش حياتها، ومما يقلقها، خالصة لمتعتها، كأنما تمارس نوعا خاصا وشخصيا من الرقص. صوت تنفسها المتلاحق إيقاع حيوية جسدها. صوتها الهامس يحرك أعماق جسده. يمحو ما أصاب لقاءهما في الفراش من اعتياد. يعيد فتنة أيام الزواج الأولى.

بسبب هذه الشهوة المفاجئة، تسامح مع تغيير ملابسها وانتقالها من لبس البنطلونات والبلوزات المحبوكة على الجسد إلى العباءات السوداء والخمار الذي يغطي الصدر.

***

في الليل أغلق الصيدلية.

الشارع ساكن.

سيارات نائمة أمام البيوت.

الضوء عند ناصية الشارع، برتقالي، يمنح الشارع صبغة خيالية.

أخرج الموبايل وطلب ريم

رنين

***

سافرت خالتها في نهاية الصيف. ظن "مهاب" أن الأمر انتهى، وزالت الغُمة. لكن حالة ريم لم تتغير، بل زادت عبوسا كأن خالتها أخذت معها مرح الحياة. أثناء وجودها كانت "ريم" تصفو قليلا ويقرأ لها الفنجان ويتبادلان المزاح والحب. تغير الأمر وأصبحت تصر كل خميس أن تزور أختها "رباب" ويوم الأحد تزور أمها.

يوم الخميس تأخرت في بيت أختها رباب. مر عليها في الثانية عشرة. رفض طلبها أن يصعد ليجلس قليلا مع الشيخ "عصام". قابله عدة مرات في المناسبات العائلية، وكون مشاعر عدائية تجاهه، وأقنع نفسه بأنه نصاب، وسخر من تأليفه للكتب والتربح من الدين. تراكم بينهما

حس بارد لم يرغب "مهاب" أن يلمسه.

نزلت ريم من بيت أختها صامتة شاعرة بالتعب. قالت إنها مريضة وخائفة. جسدها مكسر. وصارحته في اليوم التالي بأن الله سيعاقبها على لهوها وتسيبها، لا بد أن عقابا ينتظرها، ثم أخبرته أخيرا أنها خائفة من الموت.

الخوف من الموت أمر جديد. لاحظ مهاب، كيف تصحو أحيانا في الليل تترك الفراش وتتحرك بلا هدف في الشقة. يعرف أن الأعراض المرضية أوهام، فيقول ببساطة: "نحجز عند الدكتور رفعت." لكنها تطلب تأجيل زيارة الطبيب بعض الوقت حتى تتأكد من المرض.

الأوهام المرضية لا بد أن تُترك لتتبدد وحدها. إن نُدَخّل، إما أن يحولها إلى مرض حقيقي، أو ادعاء بأنه غير مهتم بها. في الأيام التالية ظهر الكثير من أمراضها، وكلها تصب في الخوف على جسدها. انظرا! هناك بقعة كالحة على الثدي الأيسر. دقق هناك منطقة متورمة تحت الإبط. يومئ مهاب برأسه: "لا بد أن نستشير طبيب أمراض جلدية." يُظهر الجدية، لكنها تتراجع وتفضل أن تنتظر حتى تتأكد من الأمر. "قدمي ينمّل يمكن يكون عندي ضيق في الشعيرات الدموية."

ذات يوم أمسكت لفة من شعرها في كفها وقالت وهي تبكي:

"انظر، شعري يسقط."

كل يوم يظهر الخوف على جسدها في شكل آخر. إن نسيت موضوع بقعة الصدر، يظهر وجع المفاصل وإن نسيت تساقط الشعر، تظهر زغللة في العين ودوخة. مخاوف غامضة تطاردها.

أدرك مهاب أن الأمر يزيد عن حده.

لا بد من كسر الدائرة.

دخل البيت في الليل. نور الصالة مضاء. ولعب منى متناثرة على السجادة أمام التليفزيون. أدرك أن "ريم" ستخرب حياتهما. ألقى عليها نظرة في غرفة النوم. عاد إلى الصالة وفتح التليفزيون. جلس شاردا أمام صور تتحرك. هل هناك ما يمكن عمله؟ يمكن أن يأخذها ويرحل من هنا. يغادر تلك البلد أو يعمل أي شيء. لكن "فهمي" أيضا يفكر في السفر. لا بد أن هناك حلا.

***

بعد صلاة الجمعة قابل "رنا" عند باب بيتها راجعة من السوق. أخبرها بأنه تعب، ولا يفهم سر ارتباط ريم المفاجئ

بيت أختها "رباب"، وسخر من أنها أصبحت تحب الوعظ الذي يخصها به الشيخ "عصام".

ابتسمت رنا:

"لا تخف هي تبحث عن وسيلة لتخرج من همومها."

قال مهاب:

"نفسي أعرف همومها."

ضحكت رنا:

"هي نفسها لا تعرف."

ثم قالت بجدية:

"نفسها مقبوضة وخائفة"

قال مهاب بغضب:

"إن كانت تحتاج إلى علاج، نذهب إلى طبيب نفساني."

قالت رنا:

"لم يصل الأمر إلى هذا الحد. اصبر."

عمَ تبحث ريم، ولماذا انطفأت حياتها على هذا النحو، لماذا أصبح عالمها ضيقا عليها، لماذا تريد أن تخرب ما أقامته كأنها ستعيشه إلى الأبد؟

* * *

زادت عدوانية ريم. راحت تحمله مسؤولية ما حدث لها. تتهمه بأنه مهتم بالعمل أكثر من اهتمامه بالبيت وأنهم

لم يسافروا مرة واحدة هذا العام، وأنه أصبح بخيلا لا ينفق على البيت مثلما كان يفعل في السنوات الأولى للزواج. كل مناقشة تتحول إلى رغبة في تحطيم شيء، ثم بكاء.

في فترات قصيرة من السكينة، تجلس بجانبه. تحاول استعادة أمسيات تناول القهوة وقراءة الفنجان، كأن التعب قد فارقها. تشرد قليلا، وتنظر إلى وجه مهاب وتقول إنها تحبه لكنها لا تعرف ماذا أصابها.

لحظات نادرة تتلاشى بسرعة، ويعود مرة أخرى الصمت والجهامة والهستريا، حتى جاء اليوم الأخير، وطلبت أن تنزل لزيارة أختها لكنه أراد أن يضع حدا لهذا الدوران في نفس المكان. أصر ألا تنزل من البيت، وهددها بالطلاق. عاد في الليل ولم يجدها. أدرك أن العلامات التي كانت تحوم حوله قد تحققت، وأنه الآن في قلب اللحظة التي خاف أن يواجهها طويلا.

***

في الليل يغلق الصيدلية.
الشارع ساكن.
طلب ريم.
رنين

***

اتصلت حماته:

"ماذا ستفعل؟"

"ربم ترجع إلى البيت من نفسها."

"تقول إنها لم تعد تجوز لك."

"ترجع البيت من نفسها."

"سألت المشايخ وأصبح الطلاق واقعا."

"خلاص تستنى طلبها في بيت الطاعة."

وقبل أن يغلق الخط قال:

"يا حماتي بيت الطاعة غرفة الكراكيب فوق السطوح في بيت أمي."

في المساء اتصلت مرة أخرى، وقالت:

"تعال نتكلم."

***

في ظلمة الطريق، يقود السيارة إلى كفر الزيات، غير عابئ بصوت الشكمان المرتفع. "فهمي" يريد أن يزور عمه، ويستلم منه أوراقا أرسلها له "مينا" من أمريكا. سيرة أمريكا تقيم بينهما صمتا متربصا.

قال فهمي:

"السيارة هلكت تحتاج صيانة."

"سوف أتركها يوم الجمعة عند الأسطى محمود

يفحصها ويعمل اللازم."

"يوم الجمعة ستجدها قد تفسخت."

قال مهاب بصوت خفيض:

"ماذا تنوي؟"

قال فهمي:

"بصراحة متردد."

واصل الكلام:

"أنت ترى!! البلد غير مضمونة؟"

قال مهاب:

"الدكتور نبيل ملاك يرعب الأسرة بحكاياته عن نهاية العالم، واضطراب الأحوال وهجوم العشوائيات على المدن."

ضحك فهمي:

"الدكتور نبيل يتنبأ بالغيب لكنه يعرف أنني لا أؤمن بنبوئه."

"لكنك تأثرت بها."

قال فهمي:

"لا، لا، تعبت."

ألقى مهاب السيجارة من النافذة وأغلق زجاج السيارة كي يحجب قليلا صوت الشكمان ويسمع صاحبه:

"أشعر أنني لا أعيش. شريف الشايب عنده حق. كأن

الواحد في حلم."

صمت قليلا:

"لا تنسَ أنني أقترب من الأربعين ولا شيء هنا."

"هناك سوف تجد بنات نشطة وسوف تتزوج."

"يمكن."

ثم قال بجدية:

"الحياة فترة بسيطة علينا اجتيازها، لا يجب أن يثقل المرء قدمه بأكياس رمل. عليه أن يعيش كأنه يعبر شارعا."

قال مهاب:

"تبرر لنفسك الهجرة؟"

قال فهمي:

"أحاول أن أقول لك أنك تقتل نفسك من أجل لاشيء."

صوت الشكمان ما زال يزأر، ويشوش حديثهما.

"لا شيء يستحق ما أنت فيه. امرأة؟ هناك العشرات."

قال مهاب:

"لأنك حافظت على نفسك بعيدا."

"يا عم الموضوع زاوية للنظر، أنت تنظر للأمر كما كان أبوك ينظر إليه."

قال مهاب:

"أبي كان أشجع مني. تزوج مرتين. عرفت بالصدفة.

أمي تخمن لكنها لم تعرف."

قال فهمي:

"خلاص إن كان الأمر ميراثا عائليا خفف عن نفسك وتزوج، واترك الموضوع يحله الزمن."

ضحك مهاب وقال:

"نفسي أشوفك وفي يدك الكلابشات."

عبر مزلقان سكة حديد، وانطلقت السيارة في شارع مقسوم نصفين بكتل من حجارة مدهونة بالأبيض والأسود. على اليمين مبان بأسوار عالية، مصانع كيماويات، قديمة، طراز أيام الإنجليز، وأعمدة النور متناثرة ضوؤها يجعل الشارع كئيبا. أوقف موتور السيارة ليستريح من صوت الشكمان. نزل ووقف تحت شجرة بونسيانا ناشفة أمام مخازن كبيرة لها بوابة حديد. المبني قديم كأنه وكالة من الوكالات القديمة، بقايا الميناء الذي كانته المدينة في يوم من الأيام.

لوّح فهمي:

"لن أتأخر."

تابعه مهاب، يعبر إلى الجهة الأخرى من الشارع، ويدخل بيتا قديما له بوابة صغيرة، وسور متهالك.

في طريق العودة حل الصمت المتربص لسيرة أمريكا.

قال فهمي بجدية:

"حتى لا أترك مجالا لأي تخمين، بالنسبة للصيدليات ستظل كما هي لو تم السفر. نصيبي سوف توصله إلى أمي. زوج أختي يمكن أن يساعدك وهو أمر يتوقف عليك."

ابتسم مهاب:

"يا بختك يا فهمي، تأخذ كل حاجة ببساطة."

"بختي؟"

دفعه بقبضته في كتفه:

"بختي صنعته، حاولت أعلمك، لكنك تلميذ فاشل."

قال مهاب:

"حب النساء مرض عائلي."

***

أجساد النساء ناعمة مثل رمل مغمور بالبلل والنور. تخيُّل النعومة يؤلمه ألما جسديا. يرتبك كلما دخلت امرأة الصيدلية. كل امرأة تجردت من كل شيء غير نعومة جسدها. يشعر بلمحة من المرض في تلك الأخيلة. يجرد من يراهن، ليس من ملابسهن فحسب، بل من كونهن أخوات وعمات وخالات وبنات أخ وبنات أخت وأمهات، وغيرها من العلاقات. يجردهن من الصلات التي تشكل

التنويعات اللانهائية للأنثى.

في ذروة حرمانه، لم يعد يرى غير الجسد الناعم. يحاول أن يبرر تلك الأخيلة بأنه يريد أن يصل إلى الجوهر الخالي من الصفات، أهم وأول ما يشكل جوهر الأنوثة، لكنه في النهاية يعود إلى نقطة البدء، ويدرك أن ذلك هو أعراض هجر "ريم". إدراكه الخفي لذلك أقام عداوة بينه وبين نفسه. حسه بالغضب بخار يلف أخيلته. شروده أصبح متوترا. يدخن بسرعة ويلقي بالسيجارة قبلما تصل إلى منتصفها، ويشعل أخرى. يشعر أحيانا بأنه قد مُسخ إلى شخص آخر، وتساءل كثيرا أين "مهاب" الذي يتصرف بحزم. دوّخه تعلقه بريم. ذات يوم قال لنفسه: "ريم أمر لا بد أن ينتهي. إما الوصل أو القطع." عليه أن يتحرر من هذا التعلق حتى لو أدى الأمر أن يتزوج بفتاة على طريقة "شريف الشايب".

* * *

صباح شتوي. الضوء خافت في شارع علي مبارك. قاد سيارته ببطء. يشعر بالوجل، ونوع من الشرود وإحساس بالضياع. نومه أرق. لا يصدق ما اتفق عليه مع شريف مساء أمس. رغم كل علاقاته ومغامراته لم يجرب مرة واحدة "علاقات السوق" كما يسميها شريف الشايب.

ركن السيارة أمام البيت. فكر أن ينسى كل شيء ويستمتع بالتجربة. سيحاول أن يجعلها مثيرة، ولها طعم آخر. نوع من التغيير. صعد السلالم يفكر في البنت وفي شكلها. دخل الشقة. شرقة غرفة الجلوس مشيشة وضوء النهار يتسلل إلى الصالة. رأى البنت. ترتدي جيب رصاصيا وتجلس واضعة ساقا فوق الأخرى. ملامحها غليظة. شعرها ناعم وقد خلعت الحجاب وألقته على كنبة الصالون.

قال "شريف":

"اتبعني."

في طرقة الحمام أعطاه التعليمات: "البنت بكر، لا تحب العنف، وخبرتها عميقة، تستخدم كل تجويف في جسدها كبديل، كأنه عضو الأنوثة. تعرف كيف تمتعك. تأخذ الفلوس مقدما. أعطيتها ونتحاسب بعدين." ثم دفعه إلى الغرفة، وجرى إلى المطبخ، فقد سمع فوران القهوة.

تثبت مهاب في مكانه:
"لا أحب الأماكن البديلة."
جاء صوت شريف من المطبخ:
"أنت طلبت بنت بنوت."
جلس مهاب في مواجهة الفتاة. سألها عن اسمها،

فردت بعدوانية:

"هتخطبني؟"

قال متوترا:

"يا فتاح يا عليم."

"اسمي نسمة، ارتحت؟"

حاول أن يغوي نفسه، بعد أن شعر بأن رغبته تتجمد. يمكن أن تكون العدوانية طريقا إلى الشهوة:

"أخذت فلوسك؟

"أخذت."

"طيب قومي."

قادها إلى غرفة النوم. أمرها أن تخلع ملابسها كلها. أطاعت باحترافية وهي تبتسم ابتسامة شاردة. يجلس على طرف السرير. جسدها عادي. أجلسها بجواره عارية.

"سوف أعطيك أجرا إضافيا إن قلت لي ما الذي دفعك إلى هذا الطريق."

ضحكت:

"هو انت بتاع كلام؟"

نظر إليها بغضب، ثم وقف. خلع بنطلونه وملابسه الداخلية، وشعر بالفخر وهو يظهر ذكورنه. نظرت إليه

بجدية كأنه مجنون. بدت خائفة قليلا. حرك الشعور بالفخر والنظرة الخائفة قدرا من الإثارة. جلل الصمت اللحظة فحضرت الشهوة.

أسلمت نفسها، لكنه شعر بيقظتها وتحفظها، ورغم محاولتها إظهار البراعة في الحركة، فإن الحاجز الذي أقامته بيقظتها استفزه، وشعر بلحظة الذروة بعيدة وانتصابه قويا. لم تسمح له أن يدخلها، كلما حاول، تُضَيِّق بين ساقيها وتقبض بطنها. أثارت حركات هروبها رغبته في اقتحامها، وحاول أن يدخلها عنوة، مخاطرا أن يجرحها. لحظة غريبة من التهور والرغبة في الإيذاء. لحظة خاطفة شعر ببلل الفرج، وبرغبتها تتحرك، أدرك أنه تمكن منها. علق ساقها على ساقه، لكنها قبضت بطنها ودفعته بقوة من فوقها. حاول أن يكرر المحاولة، لكنها صرخت فتركها، ورقد على ظهره، يحدق في السقف.

دخل شريف:

"فضيحتي بجلاجل."

"صاحبك مريض، خذ فلوسك."

ضحك شريف وقال:

"لا رجوع في الاتفاق."

قالت:

"هو من يرجع في الاتفاق."
وعدها مهاب أن يحافظ عليها، وانتهى الأمر بمرح.

في النهاية سألته إن أراد أن يعمل مرة ثانية، يمكن أن نجيء إليه في شقته. قال: "ظروفي ملخبطة، سأتصل بك." لكنه لم يتصل، فقد خاف من نفسه، وظل طول الأسبوع يفكر لم أراد أن يضيّع البنت، بدون سبب، وأحس بنفسه مريضا كما قالت.

* * *

دخل مهاب بيت حماته.

يجلس أخوها في صدر الغرفة إلى جانبه الشيخ "عصام". التقطت حواسه الداخلية الأجواء المتربصة. تحركت نقمته، فلم ينتظر حتى تعد حماته الشاي، وبدأ الحوار سائلا عن من أفتى بأن تهديده لزوجته، يعد طلقة ثالثة؟ حاول الشيخ عصام أن يمازحه، لكن "مهاب" سأله بعداء عن رأيه الشرعي. قال الشيخ بأن الطلاق وقع، حتى في حالة الغضب، يقع الطلاق وإلا فيمكن لنا أن نوقف عقوبة القتل في حالة الغضب وغيره. قال مهاب ساخرا لكن هناك من المشايخ من يرى أن النية شرط أساسي لوقوع الطلاق، ولا يستطيع أحد أن يحدد نيتي غيري. أنا

من يقول إن الطلاق قد وقع أم لا.

اشتبك مع الشيخ "عصام" في حديث عن موضوع "المحلل" وسأله إن كان يقبل هذا على نفسه. أصر الشيخ أن "ريم" لم تعد تجوز له إلا بعد أن تنكح زوجا غيره. قال "مهاب" إن المقصود بما في الآية، الحياة الطبيعية وليس صناعة المحلل التي يتاجر بها المشايخ. اكفهر الجو، وتدخل خال "ريم" قائلا:

"الأمر يخص الرغبة في العشرة."

قال مهاب منفعلا:

"الأمر يخص النية، يا حاج كمال، القصد هو ما يُوقع الطلاق."

صمت الجميع إلا أن توتر مهاب استمر بغير سيطرة: "إن كنا هنا من أجل حسم موضوع الطلاق فيجب أن نستشير قاضيا شرعيا ليس من 'بتوعهم'." وانفعل بشدة قائلا: "من قال لكم إن خلافاتنا في المرات السابقة تحسب طلقات. الطلاق حدث مرة واحدة. عندما كسرت لها ذراعها وطلبت الطلاق، ولأنني كنت مخطئا طلقتها بناء على رغبتها، ورددتها خلال العدة، هذه هي الطلقة الوحيدة." ثم انزاح حتى جلس على طرف الكرسي ووجه كلامه للشيخ عصام: "والأهم يا شيخنا أن "ريم" عندما أخبرتها ألا تترك

البيت كانت حائضا. لا يقع الطلاق على حائض. صح يا عم الشيخ، ثم قبل كل هذا وبعده أين زوجتي؟"

توجه بغضب إلى حماته:

"أين زوجتي يا حماتي؟"

"عند أختها."

قال بانفعال:

"أختها.. أختها.. أين بنتي؟ أريد أن أرى بنتي."

نظر إلى حماته وهو يقف ويلم مفاتيحه وسجائره من فوق المنضدة الصغيرة:

"سأمر في أي وقت وإن لم أجدها سوف أبلغ البوليس أنها هربت وخطفت البنت.."

* * *

البرد شديد يجعل الهواء مرئيا، كأنه ورق شفاف. ما إن نزل من السيارة، ليشتري سجائر من كشك في شارع البحر، حتى أحس بأنه يمشي في سائل شفاف. كل شيء شفاف وباهت. حس خافت بالحياة كأنه يمشي في حلم. أضواء أعمدة الإنارة تنشر غلالة من الضوء والظلال في نسيج يترك إحساسا بأنها عكارة ضوء.

فتح باب الشقة. لا أحد هنا. جلس على مقعد بجوار

الباب وأخذ يخلع حذاءه، ويراجع نفسه. ربما يكون قد أخطأ. ربما يشعر بأشياء غير موجودة. يمكن أن يعيد الحيوية إلى البيت، ويهدئ ريم. يعرف مفاتيحها. يمكن أن يخدعها بوعود براقة. لا، لا، لن يتمكن من هذا. هذه لحظة فاصلة.

هناك طيف يمنعه. غلالة من الغربة قامت بينه وبينها. عدواة خفية حطت بسبب إحساسه بالمؤامرة في موضوع الطلقة الثالثة. خطرت له فكرة غريبة. هل أغوتها خالتها بأنها يمكن أن تسفّرها إلى الخليج، وتزوجها هناك، لو طُلقت؟ أبعد الخاطر عن ذهنه باعتباره غير معقول: "ريم عاشت معي أكثر من عشر سنوات، لا يمكن." عاد ليفكر في إمكانية أن يجلس معها ويبحث بجدية ما تريد. لكنه ينفر أيضا من هذا، حس غائر بالإهانة يغذي غضبه ويدفعه إلى الحافة.

الغلالة الشفافة من الغربة تتكاثف وتصبح طبقة سميكة من النفور. "ريم" السبب في تخريب البيت والحياة. طلبها للطلاق يدفعه إلى حافة الجنون، ولا يعرف ماذا يمكنه أن يفعل، تسحبه مشاعره بعيدا عن نفسه.

تحرك في الشقة. فكر أن يخلع ملابسه لكنه عاد ليجلس مرة أخرى على المقعد بجوار الباب. يتحول حنقه على "ريم" إلى نقمة على نفسه. يسخر من اقتناعه الطفولي ببصيرته ورؤيته لأفكار الناس. أوهام أدمن عيشها. يغذي إحساسا

زائفا بقيمته. لم يتمكن مرة واحدة من أن يكون رجلا. يعترف بأنه كذب على نفسه، ويكذب عليها الآن.

الموضوع ببساطة: "ريم لم تعد تريد الحياة معك."

هذه الجملة البسيطة تشعل أعصابه. في فترات سابقة، كان يزهق منها ويريدها أن تترك البيت، ويجد بوادر ميل تجاه أخريات. خيل إليه وقت ذلك أن ارتباطه بها خفيف، يمكن التخلص منه بسهولة. وهم آخر. أظهرت حقيقته الأحداث الأخيرة. يرغب في من ترغب في هجره. قبل يومين اتصلت به البنت التي عاشرها في شقة شريف، تهرب منها وتعلل بانشغاله.

يرغب في من ترغب في هجره.

الهجر لا يمكن تحمله. يهز أركان تصوره عن نفسه: ثقته في ذكورته وفطنته. الهجر يقوض صورته التي اعتاد عليها وعاشها كأنها "هو". هذه "الأنا" المسماة "مهاب" التي قام وجودها وتماسكها على حب "ريم" ونجاح أعماله، تهتز أركانها الآن. سؤال خبيث، يتسلل، يحدق فيه بعينين لامعتين من خلف تشوشه وغضبه. يقترب ويبتعد. يلمس سطح خواطره، ويختفي:

"ما الذي يتبقى من مهاب بعدما تهجره ريم؟"

"ريم" هي المرآة التي رأى فيها وسامته ونجاحه، وحبها هو الذي منح القيمة للكائن الذي يسمى "مهاب". بعدما تتحطم المرآة، لن يكون له وجود، سوف تأخذ ريم ذلك الشخص وترحل. لن تترك له، إن بقي فيه شيء، غير خلاء. سوف يكون "مهاب" بلا "مهاب" الذي يعرفه، بلا صورة تقريبا. استعارة المرآة أرعبته. الخلاء خلفها عماء؛ عدم. لن يتبقى منه شيء. يعني "مهاب" لاشيء غير صورة أقامها حب ريم. الشعور النيئ بالهجر رعب محض.

لا يتمكن من البقاء في البيت. عقله يعبث به. الجنون يبتسم له بسمة مهرج يغطي وجهه بالمساحيق. ارتدى حذاءه مرة أخرى ونزل إلى الشارع. يدور بالسيارة في شوارع خالية. دورة ثانية من المحطة حتى الاستاد، دورة أخرى من كوبري فاروق حتى سوق الجملة. مهاب غير موجود، مجرد سيارة تدور في شوارع خالية.

بدأت المدينة تصحو، وتنمو حركتها وتزدحم شوارعها. يدور بالسيارة غير قادر على التوقف، حتى ترددت في الفضاء أناشيد الصباح المدرسية، وعزف أكورديون أنغام النشيد الوطني، ملخبطة، غير متقنة، مغمورة بوشيش مكبر الصوت.

***

يحلم أن ريم ترتدي عباءة سوداء، وتدخل عمارة في الجزء الشمالي من المدينة، يكاد من قوة الفكرة أن يستيقظ ويرتدي ملابسه وينزل ليبحث عنها. أرهقه الشعور بأنها في مكان ما، على وشك الزواج وأن "منى" تنام في غرفة مفتوحة النوافذ. يدور في الشوارع دون توقف، غير قادر على السيطرة على سرعة السيارة أو إيقافها. تسير بمعدل سرعة محدد. لا يستطيع أن يعيدها إلى السرعة الأدنى، ولا الأعلى، ولا إيقافها. حسد المترجلين، ومن يتجولون في الشارع التجاري، أو يسيرون بجوار سور مدرسة الصنايع.

استيقظ من النوم يشعر بضرورة أن يرى ريم اليوم. لقاؤها سوف يخلصه من هذه الحالة ويوقف الدوران الخالي من المعنى.

مضى متمهلا بالسيارة، لا يرغب أن يصل بها إلى السرعة التي عاشها في حلم الليلة الماضية. يغير الحركة، ويتوقف، وهو يشعر بذلك النداء الغامض أن يرى "ريم"، يتحول إلى رغبة جسدية. يدور بالسيارة في المدينة لفترة طويلة، يصل إلى المدن القريبة ثم يعود. كل يوم بعد انتهاء مناوبته في الصيدلية يقود سيارته بلا توقف.

يبحث عن التغير، متى حدث وما السبب؟

***

تجبره عادات تفكيره في العلامات، أن هناك لحظة معينة تم فيها التغيّر. علامة أفلتت من ملاحظته، دون أن يخطر له أن التغير قد يكون قد حدث على مهل ومن أول أيام الزواج. ضلله حسه بالعلامات وظل مقتنعا أن السنوات الأولى من الزواج كانت طيبة، وسنوات ميلاد "منى" حتى وصلت إلى خمس سنوات. فكر بحزن: كانت هنا حياة طيبة ضاعت. ربما تغيرت "ريم" لأنها لم تعد ترى أملا في حياتها بهذا الشكل، ربما تحتاج إلى عمل، ربما تحب شخصا آخر، ربما وعدتها خالتها أن تأخذها معها إلى الكويت إن تخلصت من زوجها.

هنا توقف ذهنه عن الدوران. للمرة الثانية تراوده نفس الفكرة. توقف عندها، كأنما لمح فيها تفسيرا لما حدث، وأساسا يقيم عليه تغير أحوال زوجته. بدت له معقولة، لأنها تبرر التشبث بفكرة الطلقة الثالثة. تعرف "ريم" عصبيته. انتظرت أن يحلف عليها إن خرجت من البيت تكون طالقا وعندها خرجت. نجح تدبيرها.

حازت القصة رضاه، أكثر من موضوع الحب أو الملل أو أي أمر آخر. قصة وعد خالتها بالسفر إلى بلاد الخليج والزواج هناك، أكثر معقولية وتصدقها العلامات الصغيرة. اكتست الفكرة بالعاطفة، وراحت تقيم لنفسها كيانا. تترسخ بمرور

الوقت، وكلما استعادها، تأكد من قوتها وتناسقها.

يضع خالتها في بؤرة القصة كأنها مُحرّكة الآلام التي يعيش فيها الآن. تأتي من الكويت كل عام. تشيع الآمال في أذهان التعيسات من بنات العائلة. توهم الجميلات أنها سوف تأخذهن إلى الكويت تزوجهن واحدا من أهل البلد تنجب منه، وعندها يكون من حقها البقاء هناك بحكم نسب الطفل. سوف تقيم في تلك البلاد التي تعوم في الرخاء، وتتخلص من هموم الحياة هنا، من الحياة الضيقة التي يكون فيها البيت دائما في حالة حاجة.

هذه أنسب فكرة نرضى بها هواجسه، وتفسر ما غمض من حالات "ريم". لا بد أن يكون الأمر على هذا النحو. لكن القصة تفتقر إلى ركن واحد. "ريم" لا ينقصها شيء في بيتها وتعيش مستريحة ولا تعاني مما تعاني منه بعض بنات العائلة. تغاضت القصة عن تلك التفصيلة، وعبرت فوقها لتقدم أفضل تفسير لتغير زوجته، عندما بدأت تثير المشاكل وتكسر الفناجين والأطباق وتتحجج بأي شيء وتترك البيت. أرضته القصة باكتمالها وتناسقها وعززها بالشواهد والحكايات التي سمعها همسا داخل العائلة أن تلك المرأة كلما عادت تثير الزوابع في البيوت.

الغريب أن هذه القصة بدلا من أن تجعل مشاعره تجاه

"ريم" تخفت، بعثت شوقا إليها ارتفع إلى ذروته، حتى أن كل النساء كن أدوات لكي يتذكرها لا ليتخلص منها. أدرك أن حالته تتدهور. كلما فكر في بنات حياته يجد انقباضا كأنه محبوس لا يمكنه الخروج. محاولته لاستدعاء "سناء" أو "وداد" أو "علية"، لوضع شوقه إلى "ريم" في توازن مع تجارب أخرى لم يكن مجديا.

في لحظات الصمت، في منتصف الليل، يشتاق إليها. تلوح كأنها تملك سرا لا يقوى على فضه. تملك روحا مختلفة عن كل من عرفهن، متجددة لم يستطع أن يفهمها، أو يسيطر عليها. حلم بها عدة مرات ترقص في ضوء القمر. ملابسها الشفافة تظهر جسدها، تحت غلالة الضوء الفضي، مشعا وجذابا لا يقوى على فتنته. يقوم من النوم، مدركا أنه قد حبس نفسه في غرفة مظلمة ولم يترك مخرجا واحدا.

***

قبل أن يغادر شقته في المساء التالي سمع رنين التليفون. اندهش من ظهور الاسم:

"Reem

انتظر لحظات قبل أن يفتح الخط.

قبل أن يلومها لأنها لا ترد على مكالماته، قالت:

"اسمع يا مهاب، أريد أن أضع النقط فوق الحروف حتى لا تتعب نفسك."

سمع صوت تنفسها اللاهث، وأدرك ارتباكها وتوترها:

"اسمع، هذه طلقة ثالثة، وبعد انقضاء العدة سأكون حرة، سأتزوج كما أريد."

تحولت المكالمة إلى كابوس.

قال ببطء، وبصوت خفيض، إنها في الأوراق الرسمية ما زالت على ذمته، وأنه لم يطلقها، وساعة الجد لن تعرف ماذا سيفعل. القضايا أمر سهل. أن يرفع عليها قضية الجمع بين زوجين، ويمكنه أن يأتي بها إلى بيته، بسهولة، لكنه إلى الآن لم يستخدم معها أي شيء. يمكن أن يطلبها عن طريق البوليس أو يرفع عليها قضية نشوز، أو اختطاف، كل شيء متاح.

أغلق الخط.

***

وقف أمام باب العمارة ينظر إلى ضوء الشمس الغارب بذهول، يحس أنه يتحول. لم يعد مهاب الذي يعرفه. شخص آخر يرى بعيون أخرى. يرى اهتزازا هينا لغسيل منشور في شرفة في الطابق السادس في العمارة

المقابلة. يرى انسحاب الضوء ببطء من فوق كراتين مرصوصة أمام محل بقالة.

فتح باب السيارة واستعد للانطلاق إلى عمله. وجد الفكرة حاضرة في ذهنه:

"سوف يرش وجهها بماء النار."
فكرة امتلكت قوة وثقلا وقدرة على التنفيذ أرعبته.
في الصيدلية لم يرد على فهمي عندما سأله عما به.
قال بزهق:
"اتركني في حالي."

انسحب فهمي إلى داخل الصيدلية ومن هناك سأله إن كان يمكنه العمل الليلة. بدا في كامل تركيزه، وقدرته، رغم أن وجدانه مذهول. شعر بأنه يمكنه أن يدير العمل اليوم بانتباه أكثر مما أداره في الأيام السابقة.

قضى الليلة في الصيدلية. لا يرغب أن يدور بالسيارة في المدينة، سكن في مكانه. يقوم ليصرف الروشيتات. يعود إلى مكتبه. صوت التليفزيون يتردد عند حافة الوعي. ذهنه يعمل وحده، بلا سيطرة منه. يعيد تأمل فكرة الحرق بالنار، مرة بعد مرة. كيف جاءت الفكرة بهذا الوضوح، واستقرت في خواطره وحلت الملجأ الوحيد له من الألم.

يوم الجمعة الماضي، أخذ السيارة إلى ورشة الأسطى "محمود" لكي يعمل لها صيانة. سمع أحد العمال يقول لصاحبه: "إن غدرت بك، أشوف لك عيل يرشها." انتبه إلى الفكرة والبساطة التي قيلت بها وسأل الأسطى "محمود" عما يعني بـ "يرشها". قال ضاحكا: "يحرق وجهها بماء النار." كان الموقف عابرا، لا يخصه. حوار بين طرفين، وهو يجلس على مقعد خشبي بجانب باب الورشة والأسطى محمود يفك غطاء الموتور ويحدثه عن المرحوم والده وسنوات السبعينيات وما فيها من مباهج، خاصة الحشيش النظيف.

ظهرت هذه الجملة اليوم، كأنما قيلت يوم الجمعة الماضي بغرض أن تصبح حلا له الآن. خزنتها ذاكرته بعمد، كسكين تم إخفاؤه في منطقة سرية، سيلمع ساعة اللزوم. يمكنه أن يذهب إلى العامل في ورشة الأسطى محمود، أو أن ينفذها بنفسه. لا، لا، لن يؤجر أحدا ليقوم محله برشها بماء النار. هو من سينفذ. الميل إلى التنفيذ بنفسه وجد هوى باطنيا أدهشه. ظل يدخن، مدركا أنه على وشك أن يغلق الصيدلية وينطلق بالسيارة، يشتري ماء النار وينتظرها أمام البيت.

جاء وقت إغلاق الصيدلية. عرف أنه لن يتمكن من النوم، ولا يريد أن يلف بالسيارة في المدينة كما يفعل كل

ليلة. تناول قرصين مهدئين، ربما يتمكن من النوم، ويتخلص من ذلك الشخص الذي ظهر له، عنيدا ومصرا على تشويه وجه ريم بماء النار. أغلق الصيدلية. ظل جالسا في السيارة يدخن غير قادر على إدارة المفتاح.

صعد إلى شقته متعبا. ربما يُبدد النوم تلك الخواطر. النوم موتة صغرى كما يقولون. سوف يصحو، ولا يجد الفكرة. سيتلاشى كل ذلك، ويطلق ريم ويستريح.

***

في مساء اليوم التالي أصبحت الفكرة أكثر رسوخا والنوم منحه تحيزا لها ورغبته فيها نشطت وتغذت من منابع مجهولة. فتح باب السيارة. عرف أنه لن يذهب إلى الصيدلية. ظل جالسا لا يدير المفتاح. اتصل بفهمي وأخبره أنه لن يجيء الليلة. ظل يحتمي داخل السيارة من الفكرة التي تتخايل له على أنها الأمر الوحيد الذي يهدئ روحه. لايقدر على السير، فلا يضمن ما يمكن أن يحدث. الأحسن أن يبقى مكانه حتى يتبين من هو وإلى أين سوف يمضي. الفكرة تعمل سرا وتجذبه أكثر إليها. أول مرة يواجه إغواء الأفكار الشريرة، ويعرف أنها تعلو بالمرء. تجعله لا يلمس أرض الناس. يمشي وحيدا قويا فوق أرض أخرى.

لم يتخيل لحظة واحدة، أنه يحمل بين جوانحه ذلك الشر، مستترا بالملابس والأهل والنجاح والعلاقات الطيبة. الآن يصدق. يميل إلى الفكرة ومرعوب من ميله إليها. مضى الوقت دون أن ينتبه حتى بانت أضواء المحلات. الفكرة تتحور وتظهر أنها طريق يجب السير فيه. تحمل نفس الثقل والجاذبية التي ظهرت بهما في أول مرة.

بعد فترة من التدخين، استعاد جسه العادي بنفسه، لكنه ظل أسير فكرته، بل أخذ الهدوء ينظمها ويتأملها، وكلما طردها، عادت لامعة، وبتركيز أكبر وتنوع غريب؛ من حرق الوجه بماء النار إلى الخنق إلى الحبس في غرفة الكراكيب، ووصلت بعض أخيلته إلى القتل. هنا امتدت يده وأدار مفتاح السيارة. سمع الصوت الغريب للموتور فأطفأها مرة أخرى.

نزل وتمشى حتى العمارات العالية الجديدة في نهاية الشارع. عبر السوق الكبير للخضار. وصل إلى الطريق السريع. حقول تمتد حتى الأفق. قمر لامع فضي يطل على مساحات خالية كأن العالم قد تم هجره، وما السيارات التي تمرق على الطريق الزراعي غير فكرة من حياة قديمة لم يعد له وجود فيها. القمر بعيد وضوؤه ساكن فوق غيطان واسعة لها رائحة غريبة جذابة. تشبه رائحة أحد عطور "ريم"

القديمة. مشى متعبا حتى تفصد جسده بالعرق. عاد مرة أخرى. السيارة في مكانها. وجد التليفون يرن. دون أن ينظر إلى شاشته، دفعه بغيظ في الدواسة.

أدار السيارة وانطلق بها.

* * *

تخطى الاستاد الرياضي ثم دار وعاد إلى شارع البحر. رجع مرة أخرى إلى الاستاد. قاد السيارة خارجا من المدينة. توقف بجانب قنطرة مهجورة، تمتد فوق ترعة، ينمو البوص بكثافة على شاطئها. ضوء القمر يتألق على سطح الماء. التموج الهين يبعث ظلالا، ويمنح اللمعات رعشة خفيفة إثر حركة الماء.

لا يستطيع أن يدير وجهه عما تكشف له. كيف يمكن أن يداري الأمر على نفسه. أجبرته الحوادث أن يحدق في أعماقه وتكَشّف له وجهه الآخر. إحدى صوره التي لا يعرفها. أراد أن يسير بعيدا من هنا، من نفسه، من المدينة، عله يتخلص من سيطرة الفكرة، لكنه لا يقدر. والفكرة تنشط في الظلام؛ تفاضل بين القتل والحرق بماء النار. المتعة التي لاحت في فعل الشر مذهلة وذات صلة بمتعة الحب. العنف له لذة تشبه اللذة الجنسية. الغريب هو البرود الذي

تتم به المفاضلة بين القتل والحرق بماء النار.

يفكر في اللحظة التي سيسمع فيها صرختها ويرى وجهها وقد تحول إلى وجه بشع فقد ملامحه الجميلة. سوف تتبدد "ريم" التي يعرفها؛ العيون التي تلمع بشرود في لحظات الحب، وتلمع ببهجة أثناء الفرح، وبشهوة غامضة أثناء الرقص. سوف تنظر إليه برعب وهو يرش وجهها بماء النار. سوف يسكنها الفزع وعدم التصديق طوال عمرها. ستكون الحياة قد انتهت، وتحولت إلى "ريم" أخرى. يريد حقا أن يمحو بماء النار "ريم" التي يعرفها، ويستبدل بها أخرى لها وجه مشوه، مع احتفاظها بنفس الشخصية والذاكرة حتى تتعذب. فكرة القتل لا تفي بالغرض. حرق الوجه هو المراد. في تلك الحالة سوف تعيش له وحده. وتعيش "ريم" الجديدة المشوهة تتحسر على "ريم" القديمة. الأفكار ممتعة، وعواطفه الثقيلة تتشكل هنا.

تمت المفاضلة.

تتموج الرغبة مع موجات المشاعر، ومع تلألؤ ضوء القمر على ماء الترعة وتفشل محاولاته في التفكير بعقلانية للتخلص من فكرة الحرق. يمكن أن يذهب إلى بيت حماته ويطلب أن يرى "منى"، ثم يأخذ البنت، وعندها سوف تأتي "ريم"، في هذه الحالة يمكن أن يتفاهم معها. تلك الأفكار

المسالة تتوارى بسرعة أمام جاذبية نحو "ريم" لكي تبقى له وحده، نحو الصورة الحالية حتى لا يمتلكها أحد غيره. التخلص منها هو الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ بها.

لا يعرف إن كان قد غفا أم أنه ذهل عن نفسه، جالسا في مكانه أمام عجلة القيادة، حتى لاحظ الضباب يبلل زجاج السيارة الأمامي، ويحوم فوق الترعة. أدار المحرك واتجه ناحية المدينة. واجهه الطريق الزراعي خاليا مفتوحا كأنه نهر يغوص إلى أماكن أخرى. شعر برغبة في الاندفاع. أطلق سرعة السيارة. مبنى مدرسة الزراعة ومصانع علف الدواجن وجباسات الرمل والأسمنت والنصب التذكاري للشهداء، ومحطات البنزين كل ذلك يتوارى بسرعة كأنه من ورق. زاد من سرعة السيارة متعشا ومترقبا وناظرا بحدة إلى الأمام.

كانت السرعة أزيد من اللازم عندما واجهه جسر علوي. حاول أن يكبح السيارة. داس بقوة دواسة الفرامل، أدرك أنها تدفع هواء ولا تكبح السرعة. قال "قطعت فرامل هنا؟" تركها تندفع إلى قمة الكوبري، لكنها لم تتمكن من الصعود إلى ذروته. عند أعلى نقطة فقدت قوة الدفع وفي نفس الوقت توقف الموتور. بدأت تنحدر إلى الوراء، لم ير سيارة النقل القادمة إلا في لحظة التراجع.

لم يعد يعبأ بشيء.

يتراجع تاركا ما يحدث يحدث.

* * *

تبقت في ذهنه أخيلة لحظة الاصطدام: صوت تهشم الزجاج. انحراف سيارة نقل عن الطريق. اصطدامه بالرصيف وانقلاب السيارة. صخب وزعيق. صوت سارينة الإسعاف جاء بعد أن مات وشبع موتا. كل هذا يعرفه دون أن يراه. مناطق الألم متنوعة شوشت على بعضها. الخدر والتنميل بدأ. الأرض ترتعش. الفضاء به حركة غير مرئية. انقطت الكهرباء عن الجاذبية الأرضية. انفلتت الأشياء من عقالها. طارت السيارات والناس وصناديق الزبالة الزرقاء وأفران الخبز والبيوت وأكياس الشيبسي وريم بملابس النوم وسلع السوبر ماركت المتنوعة وكل أدوية الصيدلية، والموبايلات وأطباق الدش. الأشياء بلا ثقل. خفيفة تتجول في السماء دون أن تتصادم.

غاب كل شيء، وجاء وقت السقوط. قال لنفسه: لقد مت، وهو يواصل السقوط إلى الأرض السابعة التي سيصل إليها بعد مئات السنين. اندهش من سحر الموت ومرحه، كأنه أرجوحة العيد، لماذا يخافه الناس؟ إنه أمر بسيط. سقوط بلا نهاية. وعندما تصل هناك لن تكون موجودا. وعيك الذي يرهقك لن يكون معك. و"مهاب"

الذي يحب "ريم" سيتكسر مثل إناء من الفخار، ثم يتحول إلى العناصر التي كانها قبل أن يتشكل إلى ذلك الكائن العجيب. كل الآلام خفيفة وكل تشبث لا معنى له. الأيام التي عاشها، لمحات تعبر دون أن تترك أثرا، وفي عمق الموت، رأى معدن الحياة، وشعر بالحزن لأنه حصر نفسه في أمور صغيرة هشة، وكان يملك اتساعا لانهائيا، أضاعه بسذاجة، وجبن. تمتم: "يا خسارة." بإحساس عميق أنه أهدر حياة كانت بين يديه؛ أثمن من نفسه وحبه ونجاحه.

***

غرفة المستشفى واسعة. ضوء خافت يأتي من نافذة على اليسار. يدور في فلك آخر. يشعر بالراحة لتلك الأخيلة التي تعجن الزمن ولا تقيم حدودا بين الأشياء، مستمتعا بصوت حديثه لنفسه الخفي المهدهد، وبالصور التي تتراءى عابرة وعيه كما يعبر سرب طيور صفحة السماء.

تنبعث في ذهنه لحظات لم يكن يظن أنها ظلت حية، كأن كل ما عشناه خالد، مخزن في مكان ما. صور قديمة مثل صورة أبيه برداء الجيش وصورة أمه بالجيب القصير أثناء عملها مدرسة رسم، وجدته تحيطه بذراعيها أثناء جلوسه على قاعدة النافذة، يتفرج على سوق الخضار البهي الألوان. صور غريبة تتزاح: طرق صحراوية، مراكب في

النيل، صيادون على شاطئ البحر، يصعد سلما ضيقا كي يصل إلى قمة الجبل ليشاهد الدير ويتحدث مع راهب كان صديقا له أيام المدرسة الثانوية. شكى له حاله، فابتسم بسمة طيبة وقال له: "صُر ولعك وألقه في النيل". يفكر أن هذا الصعود إلى الجبل كان ضروريا حتى ينفك الارتباط بينه وبين ذلك الشخص الذي كانه.

سمع صوتا يهمس بجواره. فتح عينيه. أمه تجلس في الركن وفي يدها مسبحة. صوت "منى" تلعب في طرقة المستشفى. "فهمي" ينظر إليه باستغراب. هناك امرأة ترتدي النقاب تجلس في الركن بين أمه وأخته. عرف أنها ريم:

"نقاب؟"

"لا يهم ماذا يرتدي المرء."

"هي حرة."

بدت له الكلمة طيبة، خلاص، أجمل من الخلاص الذي جربه وهو يسقط أثناء الحادثة، وشعر بخفة فسيحة أثناء تكراره:

"هي حرة"

"هي حرة"

"هي حرة"

الأربعاء ١١ مايو ٢٠١٦


الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

ماذا تريد ريم؟

يسأل "مهاب" نفسه محاولا اكتشاف سر تعلقه بها.

ريم تريد أن ترقص في كل مكان.

"تزدهر فيها حياة أخرى أثناء الرقص. جسدها يمثل تموج الماء وليونته كأن الحيوية الكامنة في قلب الحياة تشير إلى نفسها في رقص ريم. تصبح جسدا ممزوجا بالموسيقى، يهل جوهرها لامعا، مضيئا، كأنه نجم تحط من السماء."

هل تريد ريم أن تتزوج مرة أخرى وهي لاتزال زوجته؟

يعيش مهاب الأجواء الداكنة لهذا السؤال، محاولا فهم ما حدث ولماذا تركت البيت وتركت له حيرة أربكت حياته.

ولد "عادل عصمت" في محافظة الغربية سنة ١٩٥٩، تخرج في قسم الفلسفة - كلية الآداب - جامعة عين شمس سنة ١٩٨٤، صدرت للكاتب مجموعة قصص قصيرة باسم "قصاصات" عن الهيئة المصرية للكتاب، وعدد من الروايات، منها: "هاجس موت" و"الرجل العاري" و"حياة مستقرة" و"أيام النوافذ الزرقاء"، التي حازت على جائزة الدولة التشجيعية في الرواية سنة ٢٠١١، عن دار شرقيات، وكتاب "ناس وأماكن" عن هيئة قصور الثقافة، ورواية "حكايات يوسف تادرس"، الحائزة على ميدالية نجيب محفوظ للأدب سنة ٢٠١٦ من قسم النشر - الجامعة الأمريكية بالقاهرة، عن الكتب خان ورواية "صوت الغراب" عن الكتب خان للنشر ٢٠١٧.

الغلاف من أعمال الفنانة جين ساكوفسكي




ISBN 978-977-8030-43-3
9 789778 030433